علم الاجتماع السياسي
٢

الاتصال والرأى العام

بحث فى القوة والأيديولوجية

الدكتور
إسماعيل علي سعد
مدرس علم الاجتماع السياسي
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٧٩

النـــاشر
دار المعرفة الجامعية
٤٠ شارع الاسكندر الأكبر - الأزاريطة

اهداءات ٢٠٠١

أ.د. أحمد أبو زيد

أنثروبولوجي

الاتصال والرأى العام

مبحث فى القوة والأيديولوجية

الدكتور
إسماعيل على سعد
مدرس علم الاجتماع السياسى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دار المعرفة الجامعية
٤٠ شارع الإسكندر الأكبر - الأزاريطة

"يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا
وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم "

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بالرغم من أن مادة هذا البحث ذات صلة وثيقة بما أتصدى لمعالجته فى مجال « علم الاجتماع السياسى » ، فإنى لم أكن لأفكر فى تناولها هـــذا التناول المستقل ، لولا حوار دار ، بين أستاذى دكتور عاطف غيث وبينى ، وألهمنى الفكرة . والواقع أنى مدين لهذا الحوار وأمثاله بالوجهة التى إتخذها ويتخذها جهـــدى .

ولاشك فى أن لكل باحث فى أى فرع من فروع العلوم الإجتماعية والسياسية، ولكل مشتغل فى أى من المجالات الإعلامية ، دافعاً أو آخر يحدوه إلى محاولة إستكناه واحدة من الظواهر الأساسية التى لم تكن لتتأتى للإنسان بدونها أسباب إجتماعة وتفاعله وقيام حضارته ، وهى ظاهرة «الاتصال» .

وقد شاءت الظروف أن يكون لى دوافع هؤلاء جميعاً . ففى الوقت الذى كنت أوجه جل همى فيه إلى البحث فى مجالات الإجتماع والسياسة، أنيطت بى مهمة العمل كخبير فى وزارة الإعلام بالمملكة العربية السعودية ، وعهد إلى فيما عهد إلى به آنذاك ــ عندما كنت أمينا للمؤتمر الاول لإذاعات الدول الإسلامية الذى إنعقد فى الرياض عام ١٩٧٥ ــ بأن أعد بحثاً حول « دعم العلاقات بين أعضاء المؤتمر لتوحيد أهداف العالم الإسلامى » .

وقد أتاح ذلك لجهدى ألا ينحصر فى نطاق النظرة الفكرية فى مجـــالات إهتمامى الأساسية ، وكان لزاما عليه أن يتعدى ذلك إلى الممارسة العملية فى إتجاه يتصل فى القريب وفى البعيد بهذه المجالات ، على نحو يوسع النظرة ويعمق الخبرة .

وعلى ذلك فقد دار أول بحث نشر لى فى هذه السلسلة(١) حول ظاهرة القوة ومقوماتها ودورها فى تحريك التاريخ ، وهو دور لا يمكن إستيعاب أبعاده بمنأى عن ظاهرة الاتصال وما يتعلق بها، على النحو الذى حاولت بيانه فى نطاق منهج البحث الأول ، وأحاول فى هذا البحث أن ألم بجوانبه المتعددة .

ولا أحسب أنه يسع الباحث المتخصص من ناحيه ، أو القارىء العام من ناحية أخرى ، أن يقف على المغزى الحقيق لما مضى فى أمس حضارته ، أو ما يقع فى يومها ، فضلا عما قد يكون من أمر غدها ، دون أن تتاح له معالجة فكره وفكر غيره من خلال المفاهيم والظواهر والحقائق التى تظهر العلاقة بين أشياء قد تبدو للوهلة الأولى منبتة الصلة ببعضها البعض بالرغم من أنها تتصل أو تتكامل أو تعكس أوجها تتباين من حيث المظهر لشىء واحد من حيث الجوهر .

ويبقى أن أرجو بعد العناء أن أكون قد وفقت إلى أن أوفى فيما أقصد إليه على غاية أو بعض غاية .

ولا يفوتنى أن أذكر بالحب والتقدير الأخوة والزملاء بقسم الإجتماع الذين لمست فيهم تعاونا صادقاً ، وأخص بالذكر منهم الزميلين د. محمد بيومى ود. السيد عبد العاطى. كما أود أن أذكر بالحب كل الحب والتقدير كل التقدير أخى وصديقى الأستاذ محمود آدم الذى كفانى مؤنة التقديم لهذا البحث ، وتعاون معى فى مراجعته بالحوار تارة وبقراءة مسائله تارة أخرى ، إلى جانب ما أمدنى به من مراجع كان لابد منها لإنجاز هذا العمل .

وأسأل الله أن يوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه ؟

الاسكندرية :
٤ ربيع أول ١٣٩٩ هـ
١ فبراير ١٩٧٩ م

اسماعيل سعد

---

(١) أنظر : اسماعيل على سعد، نظرية القوة ، بحث فى علم الاجتماع السياسى ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٧٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم بقلم الاستاذ محمود آدم عمر

يرى إليوت T. S. Eliot أن الشاعر العظيم يتميز، فيما يتميز به، لابقدرته على أن يبرز ما توارى من التراث وحسب، بل وبقدرته على أن يستجمع، فى ثنايا شعره، القدر الأكبر من شوارده.

وقد يقول قائل «ومالنا وهذا فى بحث لايعنى بالشعر أو بشىء من قضاياه ؟»، ولكن لهذا البحث من الخصائص ما يرجع بالذاكرة إلى نظرة «إليوت» التى تستوحى مسيرة الزمن فى إيقاعها الحضارى بين ماض حائل وحاضر ماثل، فهو يظهرنا على ما يشاء له صاحبه أن يظهرنا عليه من أبعاد العلاقات التى تتصل بها أسباب الحياة ومقوماتها فى عمقها واتساعها، وذلك فى تناول يتوخى موضوعية العلم ويستلهم لغة الشعر.

وقد قــــرأ صديقى د. اسماعيل على سعد أصول هذا البحث على القـلة من أصحاب الفكر والفن التى تأتلف فى محبسى — إن كان لى أن أستعير واحـداً من أبى العلاء — فملك عليها عقولها وأفئدتها، بدقة النظرة المتأملة التى تتعدى ظواهر الأشياء إلى طبائعها وأصولها، وبرقة الـكلمة المتألقة فى أدائها للفـكرة فى مختلف أبعـادها .

وإذا كان لى، بعد ذلك، أن أقدم لهذا البحث فحسبى أن أقف منه عند بعض نقاط، يدور بها ومن حولها التفصيل والتحليل فى معالجة شاملة تحدد معالم العلاقة، التى لم تر من قبل إلا مجتزأة، بين «القوة والايديولوجية والاتصال والرأى العام».

فعلى حين جمعت « الغريزة » وحدها حيوانا إلى حيوان ، تمثل الفارق بين الإنسان وما دونه من كائنات فى نشاط عقلى متميز مكنه — فى إتصاله ببيئته — من أن يضيف خبرة إلى خبرة ويعى فكرة إثر فكرة . وفى إرتباط « الخبرة » و « الفكرة » تهيأت للإنسان فى « الكلمة » أداة نشاطه العقلى الفردى ، ووسيلة تفاعله الجمعى . ثم تمثلت فى الكلمة — بعد هذه وتلك — أو إنعكست فيها آثار تفاعل « قوى » الإنسان فى إجتماعه من ناحية ، وفى تعامله مع الطبيعة من ناحية أخرى، مذ بدأت له مسيرة .

دارت الحضارة — إذن — على « خبرة » و « فكرة » و « رمز »، فأتلفت الجماعات وإختلفت ، وتعقدت البناءات وتراكبت فى علاقات قوى ، تتوازن فى نطاق النسق الواحد من ناحية فتحدد طبيعته وتحفظ كيانه ، أو تختل فيتغير بناء القوة أو ينهار ، وتتوازن مع بقية الأنساق من ناحية أخرى فتمضى كنسق مستقل ، أو لا تستطيع هذا التوازن فتتقلب بين التبعية والإحتواء والتلاشى ، على النحو الذى حاولت المعرفة الإنسانية أن تسجله فى آدابها وفنونها وعلومها فى مسيرتها الطويلة من فوضى الهمجية إلى أوليجاركية النظام .

وإذا كان لنا أن ننظر إلى القوة فى إطارين أساسيين شاملين ، يضم أحدهما أنماطها الفيزيقية ، ويضم الآخر أنماطها الفكرية — على وعى منا بالتداخل أو التكامل النسبيين بين هذه الأنماط المتباينة — فمن الممكن أن نقول على وجه العموم إن المحتوى الفيزيقى للقوة يرتبط عادة بحيز لا يتعداه إلا إذا إختل التوازن الذى يحده فى مكان أو مجال ، فى حين أن المحتوى الفكرى للقوة — المتمثل فى الآراء والأفكار وأنساق الأفكار — لا يرتبط بحيز محدد ، رغم الضوابط والقيود .

وقد أصبح مجال المحتوى الفيزيقى ، فى صراع عالمنا المعاصر ، محدوداً على خطاره ، بينما أوشك مجال المحتوى الفكرى ، فى عصر يهيمن فيه «الاتصال» ووسائله أيما هيمنة ، أن يحيط بالعالم على سعته . ويدل ذلك على أن المحتويين الأساسيين للقوة — على ما بينهما من علاقة ضبط متبادل — يتناسبان عكسياً من الناحية الوظيفية ، مما يعين على فهم ظواهر ومفاهيم عديدة ترتبط بعصرنا الحاضر : كالحرب الباردة والحروب المحدودة والتعايش السلمى ومنع إنتشار السلاح النووى والحد من الأسلحة الإستراتيجية ونزع السلاح والإستعمار الجديد والأحلاف الإقتصادية والغزو الفكرى والتبعية الثقافية وصناعة الرأى وحروب الكلمات والحرب النفسية والقديم الجديد فى سياسات الإستقطاب وميزان القوة ، إلى غير ذلك مما يدور فى مصطلح حضارة القرن العشرين .

والنظر إلى هذه الظواهر والمفاهيم فى ضـــوء التنحى الوظيفى النسبى للشق الفيزيقى من القوة لا يعلل لها ويبين العلاقة بينها وحسب ، ولكنه يظهر فى الوقت نفسه التغيير الذى طرأ على دينامية القوة نتيجة لتفاعل أنماطها المختلفة[1] على النحو الذى سار بالتاريخ عبر حضارة قامت وحضارة دالت حتى بلغ ما يمكن أن يسمى على التعميم بحضارة القرن العشرين .

ويتلازم مع هذا التنحى الوظيفى — إذا ما حصرناه فى نطاق السلاح الحديث — عمليات تطوير مستمرة لهذا السلاح وصلت بقدرته الممكنة إلى حد يتيح القضاء على الحضارة وكل منجزاتها قضاءاً كاملا . وهذا التناهى فى القـدرة يتناسب عكسيا مع إمكانية الإستخدام وطردياً مع المدلول الإشارى أو الإتصالى للسلاح فى علاقة القوة العـالمية المعاصرة . ويتجسد ذلك فيما يسمى بـ « ميزان

---

(١) أنظر الفصل الثانى من هذا البحث .

الرعب النووى ، وما يترتب عليه من آثار إجتماعية وسياسية وسيكلوجية ، وما تذهب إليه الإيديولوجيات المهيمنة فى عمليـات الإتصال التى تستهدف رأى الإنسان وفكره (١).

ولا ينطوى التنحى الوظيفى للشق الفيزيقى من القوة على مجـرد بروز مواز له فى الشق الإيديولوجى ، ولكنه يحيل الإيديولوجية إلى قوة فعالة تنعكس فيها ومن خلالها كل الأنماط الأخرى للقوة ، أى أن الإيديولوجية تتحول فى عصرنا إلى سلاح شامل وفعال لا يقف فى إستهوائه للقلوب وإستهدافه العقول إلا عند حد إيديولوجية أخرى . وهذا الحد ليس جغرافيا أو قوميـاً بأى معنى من المعـانى ، وإنما ترسمه فى تعقيد شديد ، قدرة سياسات الإتصال على إستغلال كل مقومات وجود إنسان العصر وكيانه على إختلاف بيئته وتنوع تراثه. وكيف لا وللعصر أوثان وكهان وصوامع ورهبان ، العلوم مسوحهم ، والفنون قلائدهم ، والآداب تمائمهم .

وتوحى النظرة إلى ما حولنا بأن مسيرة التاريخ إنتهت بالإنسان إلى ما يمكن أن يسمى بـ « حضارة القرن العشرين » على تعميم فى القول ، كما أشرنا آنفا ، وأخذا فى الإعتبار بالسمات المشتركة التى أضفتها حصيلة جهد الإنسان فى مجالات علمه وفنه على وجه الحياة فى شتى أرجاء هذا الكوكب ، ولكن التغلغل إلى ما وراء ظاهر القسمات يظهر أن لهذه الحضارة أصولا ضاربة الجذور فى أعماق مختلفة على تباعد أو تدان .

ولئن كانت غلالة العصر الموحية بإشتراك القسمات قد صاغتها وزخرفتها يد الإنسان الصانع فى تجريبه وتفننه بالغا بحضارته ما بلغته فى جانبها المادى ، فإن

---

(١) أنظر الفصل الرابع من هذا البحث .

الأصول التى تقسم العالم إلى شرق وغرب ، وتفرق أبنـاءه بين أنماط حضـارية شتى ، ترتبط فى الأساس بفكر الإنسان فى التوائه الغالب وسوائه الآمـل . وليس ثمة شك فى أن النظرة إلى ما يسود الفكر المعـاصر من إضطراب وصراع توحى بأن الإنسان لم يستطع فى قيادته وإنقياده أن يقيل عثار عقله فى ترديه بين نزعاته ونزغاته ، وبأن التقدم الحثيث فى الجانب المادى لم يكن من شأنه إلا أن يعمق الهوة بين الإنسان والإنسان .

تلك ، إذن ، هى حال العالم المعاصر فى إنقسام قواه المهيمنة وإيديولوجياته التى توظف د الإتصال ، أشمل وأتم توظيف . ولست أدرى إلى متى نقف ذاهلين فى هذه الحرب العوان لنسأل : «أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا»؟ وواقعنا التاريخى ، الذى طال طينا لصفحته واغفالنا لعبرته ، خير شاهد على د أن الدين القيمة ، أصولا إعتقادية تقيم الإيمـان على سواء الحجـة فى العقل والوجـدان ؛ وأحكاما تشريعية تهيىء السبل المثلى لإجتماع الإنسان ، على إختلاف المكان أو الزمان، وتتكامل هذه الأصول وتلك الأحكام لتناغم بين ما يعتمل داخل الإنسان فى إنفراده وما تقتضيه دواعى إجتماعه ، فتقر النفوس بلا قلق أو إغتراب ، وتتسق الجهود فى غير ما خلل أو إضطراب ، ويستطيع الإنسان أن يمضى فى بناء حضارته وإثرائها فى كل مستوياتها(١) .

ويبقى بعد هذا العرض اللاهث أن أشير إلى أن البحث تناول هذه الجوانب جميعا فى تعددها وتعقدها بالتحليل والتعليل، فى موضوعية تتوخى منطق الأشياء، فعين الظواهر وحدد المفاهيم ، وإستطاع بمنهج دؤوب — يجيل النظرة متعمقة

---

(١) أنظر الفصل الثامن من هذا البحث .

فى القـــديم ، ويطيلها متأملة فى الجديد ـــ أن يرد الفروع والنهايات إلى الأصول والمقدمات . وتتيح لنا مادة هذا البحث ومنهجه ، بذلك ، أن نلم بالكثير الذى يعمق نظرتنا إلى الواقع الذى نحياه ، ولا أقول الذى نحياه .

ولى بعد ذلك وقبله ، أن أقف عند الأداة اللغوية التى استطاعت فى اقتدار أن تضع مادة الفكر حيث ينبغى لها أن توضع . وصديقى د اسماعيل على سعد فى اكتمال مادته واقتدار أداته ، باحث شاعر ، أو هو شاعر باحث ، إذ أن الكلمة عندى كشأنها فى « الإتصال » ـــ المحل الأول .

محمود آدم عمير

الإسكندرية

الثلاثاء ١٧ صفر ١٣٩٩ هـ

١٦ يناير ١٣٧٩ م

الفصل الأول

الإتصال

- تمهيد
- مفهوم الاتصال
- اللغة او الاتصال
- تكنيكات الاتصال

تمهيـــد :

إن عملية الإتصال (١) بين البشر عملية أساسية نحس ونفهم من خلالها بيئتنا بما فيها من أناس ونضفى عليها وعليهم معان معينة ، ويتأتى تبعا لذلك أن نكون قادرين على التعامل معهم أى نؤثر فيهم أو نتأثر بهم . وليس ثمة سبيل إلى هذا التأثر أو ذاك التأثير سوى عن طريق هـــذه العملية الأساسية : الإتصال Communication . (٢)

ولاشك فى أن الفرد سواء وعى ذلك أو لم يعه يشكل دائما المحور الأساسى الذى يدور من حوله وبوساطته كل ما يتم فى المجتمع الإنسانى من عمليات إتصالية ، ولقد يخيل لبعض الناس أنهم يدركون بالفطرة المعنى الذى نقصده حين نستخدم كلمة « إتصال » ، وقد يخيل لهم أيضا أن جميع الناس متفقون بوعى وبغير وعى على مدلولات ثابتة للمفاهيم التى يتصورون أنها ثابتة الدلالة ، على حين أن المعرفة الإنسانية تنمو دائما وأن خبرات الأفراد تتعدل كلما مضى يوم العمر نتيجة لعمليات الإتصال .

بيد أنه من الواضح أن الناس يختلفون فى المشارب وتذهب ميولهم وأذواقهم مذاهب شتى ، نقبينها إلى حد ما إذا ما إستحضرنا فى الذاكرة أمورا بسيطة كإختلاف الكتب والصحف التى نقرأها ، فضلا عن إختلاف برامج الإذاعة المسموعة أو المرئية التى نفضلها ، وكذلك الأندية أو الجماعات والروابط التى

---

(١) أنظر مفهوم الإتصال فى : معجم العلوم الاجتماعية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، صفحات ٨ — ٩ .

(٢) Brent D. Ruben & Richard W budd, Human communication, New Jersey, 1975, P. 1 seq.

تنتمي إليها ، إلى غير ذلك من كل الأمور التي تظهر ما بين الناس من فوارق وتفاوت على مستويات الحياة والفكر .

هذا فيما يتعلق بما نسميه الأشياء العادية في الحياة اليومية ، والذي من الواضح أن آراءنا وأذواقنا تتغير وتتبدل حيالها نتيجة للكثير من عمليات الإتصال . ويتضح إذن أننا من خلال عمليات الإتصال الشخصي نكتسب ونغير من طريقتنا في الإختيار ، وأننا نصل ما بين المعلومات التي نحصل عليهـــا عن عالمنا ونقوم بتصنيفها . ولاشك أن أوجه الإختلاف فيما نختار تعكس إختلافات أساسية في الطريقة التي نحس بها الخبرات ونلاحظ ونقسم ونفسر ونقيم الأوجه المختلفة للبيئة التي نحيا فيها . (١)

وليس من الصعب أن نلاحظ أن هناك إختلافات كبيرة بين الاشخاص في الطريقة التي ينظرون بها إلى الأشياء والناس في البيئة التي يعيشون فيها، وكذلك في ضروب الإفتراضات والتوقعات التي يرونها حيال بعضهم البعض . والمشكلة تكمن هنا في أنه يخيل لنا أننا نعي حقائق الأشياء من الناحية النظرية بسهولة، ثم نتبين عند تطبيق ما نرى على الواقع أن الأمر بالغ الصعوبة . والمثال البسيط الدال على ذلك هو مبلغ ما نحس به من صدمة حين نتبين أن صديقا لنا أو واحدا ممن نعرف إعتقد أننا نعني شيئا ما على حين أننا نعرف يقينا أننا نعني شيئا آخر يختلف تماما عما تصوره هذا الصديق . وكثيرا ما نتصرف على أساس أن فهمنا أو تفسيرنا للأمور هو الفهم أو التفسير الصحيح . وبقدر ما نكون عرضة الوقوع في هذا الخطأ في التصور نكون ولاشك في حالة إستغلاق أو عدم إستجابة المعرضات stimuli التي تصدر عن الآخرين بقصد جعلنا نعيد النظر أو نصحح

---

(١) Ibid., P. 2.

مفاهيمنا أو تفسيراتنا — أى جعلنا نغير من مواقفنا . ويتضح من هذا أننا لا نستطيع من جانبنا أن نحقق الغرض من العمليات الإتصالية مالم نضع فى إعتبارنا أولئك المتلقين Recepients الذين نوجه إليهم وسائلنا الإتصالية . ولا يمكن أن نحسن آداء الإتصالى اللهم إلا ما يتأتى على نحو عشوائى ، دون أن نعى ونقدر مدى إستجابة هؤلاء المتلقين .

مفهوم الاتصال :

ولعلنا نستبين من الأستهلال السابق أن « الاتصال بمعناه العام والبسيط يقوم على نقل أو إستقاء أو تبادل المعلومات بـــين أطراف مؤثرة ومتأثرة — مصادر ومتلقين على التخصيص أو التعميم — على نحو يقصد به ويترتب عليه تغيير فى المواقف أو السلوك » . أى أن أكثر العمليات الإتصالية قـدرة على تحقيق الغرض منها هى تلك التى تربط بين المعرضـات (أى الإشارات أو الرموز الإتصالية التى تهدف إلى إحداث الأثر) كما وكيفا ، وبين قابلية المتلقى ونزوعه على ما فى الإنسان من جنوح الأهواء والتمركز حول الذات .

ولـكى نكتشف الأبعاد التى يمكن أن يعطيهـا التعريف السالف الذى وضعناه ، سنحاول أن نقارنه ببعض التعاريف الأخرى التى إهتدى إليهـــا الباحثون خلال محاولاتهم إضفاء معنى معينا على كلمة « الإتصال » بالشكل الذى يتسق مع مدلوله كظاهرة من أهم الظواهر الإجتماعية ، أو بالأحرى كظـاهرة يمكن أن يندرج تحتها كل الأنشطة التى يمارسهـا الإنسان فى حياته . وسنحاول قدر الطاقة أن نجمل تناولنا هذا فى الحدود التى لا تجاوز كثيرا ما ينبغى للدارس أن يقف عنده فى محاولته الأولى للتعرف على مادة هذا الموضوع .

لقد عرف S. S. Stevens الإتصال على أنه : « إستجابة الكائن الحى المميزة

إزاء محرضٍ ، ويرى Gary Cronkhite أن هذا التعريف مقتضب ، وأنه على إقتضابه من السعة بحيث يغطى أنشطة الكائنات الحية ، وليس الإنسان فحسب ، وإكتفى « كرونكت » بأن يحصر مفهوم الإتصال فى نطاق الإنسان إذ قال : « إن الإتصال بين البشر يتم عندما يستجيب الإنسان لرمز ما » . (١)

ونتبين من هذا التعريف أن الإتصال لا يعتبر إتصالا إلا إذا إقترن بالنجاح. وفى رأينا أن النجاح أمر نسبى قد يتحقق جزئيا أو كليا عـــلى نحو يسهم فيه عاملان محددان هما طبيعة الإنسان ومدى ثقافته . ونحن وإن كنا قد أشرنا إلى هذا النجاح ونسبيته فى التعريف الذى وضعناه إلا أنه لم يفتنا فى الشق الأول من هذا التعريف ، العملية التى يدور حولها الإتصال وهى القصد منه . وحتى يسهل فهم التعريف الذى وضعناه نشير إلى العناصر التى تنطوى عليهـا عمليـة الإتصال — كما أوردها كرونكت — وهى :

١ — إن الإتصال الإنسانى يعتمد على الرموز ،

٢ — سواء أكانت على هيئة كلمات أو غير ذلك ،

٣ — أحدثت بقصد أو بغير قصد ،

٤ — بوساطة مصدر على وعى أو على غير وعى بما يفعل ،

٥ — وتلك الرموز تحدث إستجابة لدى المتلقى ،

٦ — بعضها قد يكون ظاهرا وبعضها قد يكون خفيا ،

٧ — وبعضها قد يكون مقصودا وبعضها قد يكون غير مقصود ،

(١) أنظر : Gary Cronkhite, Communication and Awareness, California, 1976, p.p. 20 – 21.

٨ – وقد تكون هذه الإستجابات أو قد لا تـــكون على مستوى عال من الوعى ،

٩ — وقد تكافىء ، أو قد لا تكافىء ، قصد المصدر ،

١٠ — أو قـــد تكون فى الحقيقة إستجابة من الشخص لرمز أحدثه هو بنفسه .

ولقد فصلنا المضامين العشرة السالفة التى تنطوى عليها المحـــاولة الأولية لتعريف الإتصال على نحو يعكس تقريبا كل الجوانب الأساسية فى الإتصال وبذلك نكون قد عرضنا أساسا نظريا مجردا يعين على إستكناه المفهوم .

وذلك لا يعنينا فى حد ذاته، وإنما القصد أن نتدرج منه إلى النظر من خلال منظور شامل إلى العملية الإجتماعية أو السياسية أو العملية الإجتماعية السياسية التى تدور حولها مجموعة العلوم الإجتماعية عامة وعلم السياسة بوجه خاص .

فعملية الإتصال – من الناحية التاريخية والسياسية — قامت عليها الجماعة الإنسانية الأولى التى خطى الإنسان بوساطتها أولى خطواته على درب الحضارة الطويل . فكان الإتصال فى الجماعة الأولى وسيلة الإنسان فى إشباع إحتياجاته المباشرة قبل أن يكون له فكر يدخل فى نطاق الإيديولوجيات ، وقبـــل أن يتعقد المجتمع على نحو يجعل إدارته تقوم على أساس تحقيق توازن فى علاقة قوة أو علاقات قوى . ثم قطع الإنسان أشواطا أبعد فى طريق الحضـــارة ، وكبرت الجماعة الإنسانية وإرتبطت على أسس تطورت به من القبيلة إلى القوم، ثم إلى الدولة القومية فالدولة التى تقوم على أساس إيديولوجى . ويمكن القول فى بساطة أن كل ذلك ما كان يتأتى دون مركبات بالغـــة التعقيد من عمليات الإتصال على مستويات شتى .

ومن الناحية الإيديولوجية ، نلاحظ أن فكر الإنسان ، وهو الفارق الأساسى بينه وبين مختلف الكائنات ، بدأ بالملاحظة المباشرة لما يدور حوله ، وذلك فى رأينا نوع من الإتصال وإنتهى عبر حلقات متصلة من التطور والتعقيد إلى أنساق أفكار بالغة التركيب يسميها الإنسان بالإيديولوجيات أو علوم الفكر . ونلاحظ أيضا أن كل ذلك لم يكن ليتأتى إلا عبر مركبات معقدة من عمليات الإتصال .

اللغة والاتصال :

يتطلب بناء أية جماعة إنسانية بوحداتها وتقسيماتها المختلفة ، فضلا عن تشكيل المفاهيم التى تسود فى هذه الجماعة ، ضروبا مختلفة من الإتصال . وإذا كنا نتناول الجماعة الإنسانية عادة كما لو كانت بناء ثابتا ونقوم بتعريفها على نحو تقليدى ، فإنها ولا شك تختلف عن ذلك تماما ، إذ أنها تتكون من نسيج معقد يقوم على تبادل المفاهيم بشكل جزئى أو كلى بين أعضاء الجماعات الداخلة فى تكوينها على تباين فى حجومها وأهميتها ، وقد تكون هذه الجماعة مجرد فتى وفتاة أو أسرة أو مجموعة من الامم أو حتى الإنسانية فى مجموعها ، أو ـ على وجه العموم ـ ذلك الإنسان الذى تستطيع « الكلمة » مقروءة أو مسموعة أن تبلغه .

وقد تبدو الجماعة الإنسانية فى الظاهر كما لو كانت مجرد مجموعة ثابتة من النظم الإجتماعية ، فى حين أنها تتحرك وتتغير يوما إثر يوم بفضل عمليات إتصال مستمرة تتم بين الأفراد التى تتكون منها هذه النظم .

وعلى هذا فلا يمكننا القول ـــ على سبيل المثال ـــ بأن حزبا بعينه يمكن أن يوصف نشاطه على نحو معين وثابت فى كل وقت، ويستبين ذلك إذا أخذنا

فى الإعتبار أن مجموعة من أعضائه لا يتجاوز عددها أصابع اليدين قد تجتمع ذات يوم ليتبادل أفرادها الرأى حول النقاط أو المسائل ذات الأهمية القومية فى فكرة معينة ، ثم يقررون فيما بينهم تناول بعض هذه النقاط فى التجمعات الأكبر للحزب . ومن ثم فإن السياسة العامة لأى حزب لا تنبنى فى نهاية الأمر إلا على حصيلة مجموعات الآراء التى يتناولها عادة أفراد قلائل فيما بينهم على مستوى يوشك أن يكون فرديا (١) . وذلك لا يعنى بالطبع أن الحزب فى مجموعة لا يقوم على أساس مشترك يراعى مصالح معينة .

وبإستطاعتنا توسيع دائرة هذا المثال إلى كل مجالات النشاط العامة والتى يكون للإتصال مكان فيها ، ويترتب على ذلك أن كل نمط ثقافى وكل سلوك إجتماعى إنما ينطوى على إتصال ضمنى أو ظاهر . كما أننا نستطيع أن نفرق بين التكتيكات الاساسية (أى العمليات الأولية) ذات الطابع الإتصالى ، وبين التكنيكات الثانوية التى تسهل عملية الإتصال . وقد لا يكون لهذه النظرة أهمية نفسية وإن كان لها مغزى تاريخى وسوسيولوجى ، إذ أن العمليات الاساسية أو الأولية شائعة بين البشرية بأسرها ، فى حين أن العمليات الثانوية لا تظهر إلا فى المستويات الحضارية الأكثر تقدماً .

وتعتبر كل من اللغة والإشارة من أهم العمليات الإتصالية الأولية فى المجتمع،

---

(١) يعنينا فى هذا المقام أن نلفت نظر القارىء إلى دراسة « روبرت ميشلز » القيمة عن الأحزاب السياسية ، أنظر :

Robert Michels, political parties, A sociological study of the oligarchical tendencies of Modern Democracy, N. Y., The free Press, 1962.

من حيث تقليد السلوك الظاهر ، فضـلا عن مجموعة كبيرة من العمليات الضمنية التى لا يمكن تعريفها تعريفاً دقيقاً والتى تترتب على السلوك الواضح أو الظاهر والتى يمكننا الإشارة إليها على أنها إيحاءات إجتماعية . واللغة هى أوضح أنماط السلوك الإتصالى ، ولا نحتاج إلى تعريفهـا هنا إلا على أنهـا : تتكون فى كل الحالات المعروفة لنا من آداة كاملة للتعبير بالرموز الصوتية التى تتميز بالقدرة على تحديد كل المضامين الاجتماعية المعروفة والتى تشتمل على كل ما يدرك عن طريق الحس ، أى كل الخبرات التى إكتسبها المجتمع عبر تاريخه .

فاللغة على هذا هى محور الإتصال الأول فى كل المجتمعات سواء أكانت هذه المجتمعات لا تزال فى أطوارها الأولى أم قطعت أشواطاً بعيـــدة على طريق الحضارة .

والإشارات أو الإيحاءات لا تنطوى على مجرد تحريك الأيدى أو أعضاء الجسم الأخرى فحسـب . إذ أن تنغيم الصوت عند آداء الجمل قد يعبر عن المواقف والمشـاعر بنفس القدر الذى قد تعبر عنه إشـارة مرئية كالتلويح بقبضة اليد أو تحريك الأكتاف أو تقطيب الجبين .

ومع أن نطاق الإيحاءات يتداخل مع نطاق اللغة ، فإن هناك عدة حقـائق نفسية وتاريخية تظهر أن هناك حدوداً معينة ولكنها ثابتة بينهما . ولنعطى مثلا واحد على ذلك نشير إلى الفارق فى المدلول بين مضمون الكلمات التى نعبر بها عن قصد معين وبين مضمون الإشارات التى قد تصحب هذه الكلمات وقد نعنى بهـا أشياء أخرى فى الوقت نفسه تتناقض مع مضمون الكلمات . وقد تكون الكلمات فى هذه الحالة معبرة عما نريد إظهاره ، على حين تصدر الإيحاءات على الرغم منا .

« والإتصال اللغوى بالمقارنة مع التعبير بالإيحاءات هو الشكل الرسمى الذى

يقره المجتمع ، ومن هنا نستطيع أن نفسر بالفطرة رموز الإيحاءات غير الواعية نسبياً على أنها ذات مغزى نفسى ينوق فى سياق معين مغزى الكلمات المستخدمة فى حد ذاتها . وفى مثل هذه الحالات يكون هناك صراع بين الإتصالات الظاهرة والخفية فى نمو الخبرات الإجتماعية للأفراد »(١).

والشرط الأول لترابط المجتمع هو تقليد السلوك الظاهر . فهذا التقليد ، بالرغم من إنعدام قصد الإتصال فيه ، له القيمة التى ينطوى عليها الإتصال ، إذ أنه فى عملية الإتساق مع طرق المجتمع يوافق الفرد بالفعل على المعانى التى تنطوى عليها هذه الطرق فإذا ما تعلم الفرد — على سبيل المثال — الذهاب إلى المسجد محتذياً فى ذلك حذو أفراد المجتمع الآخرين ، فالأمر يبدو كما لو أن إتصالا قد حدث ثم إنبنى عليه تصرف أو سلوك . ووظيفة اللغة فى مثل هذه الحالات هى بيان ومنطقة المحتوى الكامل لهذه الإتصالات غير الرسمية فى نمو خبرات الفرد الإجتماعية .

أما الإيحاءات الإجتماعية فلها طابع إتصالى أقل من السلوك الظاهر وتقليده ، إذ أنها محصلة أعمال عديدة ومعان جديدة أصبحت ممكنة ضمنا نتيجة لهذه الأنماط من السلوك الإجتماعى » وعلى هذا فإن تعود بعض الناس على عدم الذهاب إلى المسجد فى بعض المجتمعات ، والذى يبدو متناقضاً مع القيم التقليدية الموروثة لهذه

---

(١) أنظر اللغة والإتصال فى :

The Encyclopaedia Britannica, U. S A. Vol. 4, 1977, pp. 1005 – 1015; The Encyclopaedia of the Social Sciences, The Macmillan Com. Vol. 3, 1919, pp. 78 – 80; International Encyclopaedia of Social Sciences, N.Y. Vol. 3, 1968, pp. 24-28.

المجتمعات ، يمكن إرجاعه فى الوقت نفسه إلى ما نسميه بالإيحاءات الإجتماعية المترتبة على سلوك بعض أفراد هذه المجتمعات .

وأهمية الإتصالات التى لا تبدو كصيغ من صيغ المجتمع أو التى لا يعبر عنها لغوياً من الأهمية بمكان ، بحيث أن الفرد الغريب عن هذا المجتمع قد يحار فى فهم بعض ضروب السلوك حتى وإن كان على دراية تامة بأشكالها الخارجية ، وبالرموز اللغوية التى تصاحب هذه الأنماط من السلوك . ويلفت ذلك نظرنا إلى أنه من وظائف الفن فى المجتمع أن يجلو مثل هذه المقاصد الخفية فى السلوك الإجتماعى(١) .

إن عمليات الإتصال لا تنطبق على المجتمع بهذا المفهوم فحسب ، لأنها تتنوع تنوعاً غير محدود فيما يتعلق بالشكل والمضمون ، بالنسبة للأنماط المتباينة للعلاقات الشخصية التى يقوم عليها المجتمع . وهكذا فإن أى نمط من الأنماط الثابتة للسلوك أو الرمز اللغوى لا يمكن أن يكون له بأى حال المغزى الإتصالى نفسه فى نطاق الأسرة وبين أعضاء أية جماعة من جماعات المجتمع أو فى الأمة على سعتها .

وعلى وجه العموم ، فإنه كلما صغر نطاق الجماعة وتعقدت المفاهيم السائدة بين أفرادها ، كلما أمكن أن يكون حجم عملية الإتصال أقل . فكلمة واحدة يتبادلها أعضاء جماعة وثيقة الصلة ببعضها البعض ، بالرغم من الغموض الظاهرى لهذه الكلمة قد تنطوى على إتصال يفوق فى دقته كما كبيراً من الرسائل المتبادلة التى أعدت بعناية بين دولتين على سبيل المثال .

---

(١) أنظر : بدر الدين أبو غازى ، الفن فى عالمنا ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، صفحات ٧ و ٨ .

تكنيكات الاتصال :

وهناك ثلاثة أنواع من تكنيكات الإتصال تشترك فى تسهيل عمليات الإتصال الأولية للمجتمع وهى :

١ — الوسائل اللغوية .

٢ — الرموز التى تعبر عن مواقف تكنيكية بعينها .

٣ — خلق أحوال فيزيقية تلائم عملية الإتصال .

وأحسن الأمثلة المعروفة للوسائل اللغوية هى الكتابة. ومصطلحات «مورس» التلغرافية مثال آخر لهذه الوسائل اللغوية ، وتشترك هاتان الوسيلتان اللغويتان بالرغم من أنها لا تتشابه مع بعضها البعض من الناحية الظاهرية ، فى أن تنظيمها يقوم على أساس التنظيم الرمزى الأولى ، الذى نشأ فى نطاق الكلام. ولذلك فإنها من الناحية النفسية توسع دائرة الطابع الإتصالى للكلام بحيث يشمل مواقف يستحيل فيها الكلام لسبب أو لآخر .

وفى ظروف أخرى يلجأ إلى إستخدام إشارات كالإشارات الضوئية فى السكك الحديدية أو النفير فى الجيوش وما إلى ذلك ، وجدير بالملاحظة هنا أن هذه الوسائل وإن كانت ظهرت فى مراحل حضارية متقدمة إلا أنها أقل تعقيدا بكثير من وسائل التعبير اللغوى ، وقيمتها فى أنها تستخدم فى مواقف يستحيل فيها إستخدام وسائل التعبير اللغوى أو يكون مطلوبا فيها إستثارة الإستجابة التلقائية للإتصال .

ويأتى بعد ذلك الدور الوسيط الذى تلعبه وسائل المواصلات العصرية التى يبالغ الكتاب فى إضفاء الأهمية على الأدوار التى تقوم بها ، ومن هذه الوسائل

القطار والطائرة والمسرة وما إلى ذلك. فهى فى حد ذاتها لا تمثل قيما إتصالية ذات مدلول ، وإنما تكون بمثابة الناقلات التى يتهيأ من خلالها تسهيل نقل رسائل الإتصال . والفارق واضح تماما بينها وبين اللغة من ناحية وبين الرموز التى يضفى عليها الإنسان قيما تعبيرية معينة مثل إشارات الأضواء أو أصوات النفير التى أسلفنا ذكرها ، من ناحية أخرى . وتنحصر قيمة هذه الوسائل فى أنها وسعت دائرة الإتصال من نطاق الجماعة أو المجتمع الصغير إلى دائرة العالم بأسره . وذلك ولا شك له مغزاه فى نقل الخصائص الحضارية وتوسيع دوائر المجالات الثقافية .

وتبقى اللغة بعد ذلك كله ومع وسائل النشر المتقدمة فى حضارتنا المعاصرة هى أقوى وأهم وسيلة إتصال ، وهى من الأهمية والأثر بحيث يستحيل حصر الدور الذى لعبته وتلعبه فى تقدم البشرية .

إن تعدد وتنوع الوسائل التى أصبح الإتصال ممكنا بوساطتها فى العصر الحديث ينطوى على أمرين هامين :

فمن الناحية النفسية يمكن القول بأن العالم كله تحول إلى مجال نفسى أشبه بالمجال الأول الذى نشأ فيه المجتمع الإنسانى أى القبيلة . ومن الناحية الجغرافية أصبحت أطراف الأرض المتباعدة متدانية إلى حد يمكن أن نلاحظ فيه أن بعض البلدان المتباعدة إرتبطت حضاريا على نحو قد لا يتهيأ لبلدان متجاورة يرى من وجهة النظر التاريخية أنها قد ترتبط فى وجه أو آخر من أوجه التراث الإنسانى . وذلك يعنى ينبغى أن ننظر إلى العالم أو نعيد رسم خرطه على أساس إجتماعي ونفسي . وذلك يعني أن الكيان العلمي المتبعثر في أرجاء العالم

المختلفة يمكن النظر إليه على أساس أنه وحدة واحدة بالرغم من أنه لا يقع في نطاق جغرافي واحد (١). وينطوى ذلك أيضا على أنه في المدى البعيد لا بد وأن تختلف مفاهيم الإتصال الشخصي والطبقي والمجتمعي . هذا ويدفع العالم بمعيار حضاري أو ثقافي ثمن السهولة التي إستطاع تحقيقها في مجالات الإتصال ، إذ أصبح من المتعذر التحكم في أثر الإتصال وضبطه في نطاق الدائرة المقصود إحداث هذا الأثر فيها .

ومن ناحية أخرى قد يكون لذلك آثار سلبيه في المجالات الواسعة للآداب والفنون إذا ما عمد بعض المشتغلين فيها إلى الإستجابة للرغبات الواسعة هنا وهناك . وقد يكون لذلك أيضا أثره البالغ الذى يترتب على عمليات الإعلام التى يقصد بها إحداث آثار معينة في مجتمعات قد تناهض أنماط الفكر التي تطرحها مجتمعات أخرى ، مما حدا أو يحدو بالإنسان إلى أن يستنبط وسائل جديدة لعرقلة الإتصال على المستويات المحلية والمستويات الأكثر إتساعا . وقد نرى ضروباً لذلك في الرقابة التي تفرض على الكلمة المطبوعة سواء أكانت كتاباً أو صحيفة أو غير ذلك ، وكذلك نظم التشويش الإذاعى .

ولعلنا نستخلص مما أسلفناه أن اللغات القومية سوف تتعرض لمخاطر شديدة

---

(١) ولنا أن نلاحظ هنا أن وحدة هذا الكيان أوشكت أن تكون ملازمة لمسيرة البشرية عبر القرون ، ولم تبدأ عوامل التفتت تعتريها إلا في الحقب المتأخرة نتيجة للصراع الحاد بين الايديولوجيات ، التى تحاول أن تضفى كل منها على نفسها غلالات تنأى بها عن الايديولوجيات الأخرى من ناحية ، ونتيجة للقيود التى يحاول الانسان تبعاً لذلك أن يفرضها على ما يتيحه له الاتصال في العصر الحديث من فرص من ناحية أخرى ، كما سيتبين من سياق هذا الكتاب .

فى المدى الطويل . فهناك فى العالم العديد من اللغات وقد أدى ذلك إلى بذل جهد كبير فى مجالات الترجمة لتسهيل عمليات الإتصال على مختلف المستويات محلية وعالمية . وقد تضطر البشرية إلى أن تتخذ لغة واحدة على نطاق المجتمع العالمى بأسره كالإنجليزية أو «الإسبرانتو»(١) مثلا كقناة إتصالية لتبادل الأفكار . وأثر ذلك على التراث القومى للشعوب وعلى الآداب بوجه خاص سيكون ولا شك سلبياً للغاية .

---

(١) أنظر : الملحق الأول فى الملاحق العربية .

الفصل الثاني

بناء القوة فى المجتمع والإتصال

- تمهيـــد
- مفهوم القوة وبناؤها
- تعـــريف القـــوة
- القـوة والاتصـال
- التلازم بين القوة والاتصال
- التأثير المتبادل بين الأيديولوجية والاتصال
- خلاصـــة

تمهيــــد :

إن الموضوع الرئيسى الذى يدور حوله هذا البحث هو الإتصال والرأى العام، والصلة العضوية بينهما وأثرها فى بناء القوة فى المجتمع. وبالرغم من أنه يحق لنا أن نفترض أن دارس هذه الصفحات له دراية أو بعض دراية بأساسيات علم الاجتماع السياسى ، إلا أننا نرى أنه من المفيد أن نعرض فى إقتضاب للمفهوم الأساسى للقوة وبنائها فى المجتمع، ونرجو أن نستميح علماء الإجتماع عذرا فى أننا لم نقل « المفهوم الأساسى لبناء المجتمع » ، إذ أن ذلك فى نظرنا لا يعدو أن يكون ظاهرة مترتبة على وجود القوة وعلاقاتها وممارستها التى يقوم على أساسها المجتمـــع .

وقيامنا بهذا العرض المقتضب يستمد أهميته من ضرورة إبراز التكامل بين أشياء ثلاثة قد تقيم النظرة العابرة فواصل عديدة بين بعضهـا البعض ، وتبدى النظرة المتعمقة ما بينها من إرتباط قد يصل بها إلى نطاق التداخل والإتحاد ، وهذه الأشياء الثلاثة هى : **القوة والاتصال والرأى العام .**

٥ مفهوم القوة وبناؤها :

إن مطالب القوة ـ من الناحية النفسية وعبر التاريخ ـ يمثل دافعاً داخليـا للإنسان . فالقوة تكون فى الرغبة فى حفظ الذات . وتتطلب هذه الرغبة من أجل بلوغ ما تريد إرضاء الحاجات الهيدونية إلى أقصى حد ممكن وإنقاص الحرمان إلى أقصى حد ممكن . والأنا عند الإنسان لا يتطلب مجرد المحافظة عليه، ولكنه

---

* أنظر المناقشة والعرض التفصيلى لهذا الموضوع فى د. اسماعيل على سعد ، نظرية القوة ، دار المعرفة الجامعية ، الأسكندرية ، ١٩٧٨ ، الفصل الثانى والرابع .

يريد أيضا أن يؤكد ذاته عن طريق التأثير والسيطرة على الآخرين ، وبذلك يشبع النزوع الأنانى للمكانة الآمرة والإحترام وإعتراف الاخرين به(١) ويؤكد «هبز» ، هذا المعنى فى قوله: «ففى المقام الاول أضع فى صورة ميل أو نزوع عام يعم البشرية ، رغبة دائمة وقلقة فى إحتياز القوة بعد القوة ، على نحو لا ينقطع إلا عند الموت . . . لأن الإنسان لا يستطيع التأكد من القوة والموارد اللازمة ليعيش عيشاً حسناً دون إحتياز المزيد » .(٢) والتاريخ الإنسانى كله مصداق لهذا النزوع بشكل أو آخر . فإذا ما تناولنا ـ على سبيل المثال ـ ما يسمى فى المصطلح التاريخى بالنظام القديم Old Regime نجد أنه عندما آذنت القرون الوسطى بإنتهاء ، حلت حكومات قومية يرأسها ملوك محل حكومات النظام الإقطاعى المحلية الصغيرة . ولقد عمل الملوك على زيادة قوتهم بالتدريج، إذ أنهم كانوا بادىء الأمر ضعفاء غير آمنين ، وذلك عندما قويت الحكومات القومية وإزداد ضعف النبلاء وقل نفوذهم .

وقد أدى نمو القوة القومية والملكية فى بادىء الأمر إلى تحقيق أمن وعدالة وفرصة أكبر للمواطن العادى ، الذى أسعده أن يتحرر من مظالم النبلاء . غير أن هذا الإتجاه بولغ فيه . فقد أصبح بعض الملوك أقوى مما يجب ـ حكاما مطلقين غير مسئولين أمام أحد ، بل إعتقدوا بالفعل أنهم يتلقون سلطانهم من « الله ،

---

(١) أنظر :

V. P. Varma, political Philosophy, India : Agra, 1970, P. 410.

(٢) البان ج. ويدجرى ، التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس الى توينبى ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٢ . ص ١٣٥ .

مباشرة ، وأنه كان من الخطيئة أن يناقش أى من رعاياهم أفعالهم وأهواءهم ، وعرف هذا المبدأ بالحق الالهى للملوك . ومن ثم فقد ساد الإعتقاد بأنه يجب أن يطاع الحاكم لأنه أختير بوساطة السلطة الإلهية ، فطاعة الحاكم إن هى إلا طاعة للقوانين الإلهية ، ووجد هؤلاء الذين يعضدون الحق الإلهى للملوك حجتهم فى «العهد الجديد» الذى ينص على أنه :

«لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة . لأنه ليس سلطان إلا من الله والسلاطين الكائنة هى مرتبة من الله . حتى ان من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة »[١] .

ولقد مرت معظم البلدان بفترة خضعت فيها لأعداد متتالية من الملوك أو الحكام المطلقين ، الذين كان يعينهم فيها النبلاء الوصوليون المتزلفون ، والوزراء الطامحون ، ورجال الدين المتعاونون الذين كانوا يرغبون فى أن يعطوا العون الدينى فى مقابل مساعدة الملك لهم[٢] ويشار فى العادة إلى هذه الجماعة المحكمة الصلة وذات القوة على أنها تشكل بناء القوة Power structure فى المجتمع ، الذى يمكن أن يتباين من مجتمع إلى آخر ومن جيل إلى جيل آخر عبر التاريخ . فبناء القوة يتعرض على الدوام لتغير مستمر ، قد يكون من أسبابه هزات أو إضطرابات تحدث فى قاعدة البناء . وينتج هذا التغير فى معظم الأحيان ، كما تدل الشواهد التاريخية ، على عمليات إجتماعية تكون سبباً مباشرا أو غير مباشر فى تغير الظروف

---

(١) الكتاب المقدس ، العهد الجديد ، رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ، الاصحاح الثالث عشر ، الآيات ١ — ٢ .

(٢) John van D. Southworth, The Story of the World, N. Y. Pocket Books, Inc. 1954, P. 257.

والأحوال التي تمكن فئة أو جماعة أو طبقة إجتماعية معينـــة من السيطرة على الآخرين أو على باقي الجماعات داخل المجتمع . وقد تكون هذه العملية إقتصادية أو تكنولوجية أو ثقافية أو إحدى العمليات الإجتماعية التي تؤثر على بناء القوة في المجتمع . ونلاحظ في هذا أن كل هذه التغييرات لا يمكن أن تنتقل إلى الواقع الفعلي إلا من خلال مركب بالغ التعقيد من عمليات الإتصال التي قد تنبثق في بادىء الأمر إما عن إحتكار السلطة أو تمر على ردود أفعال تحدث بالتراكم أثرها الذي يتمثل في وجه أو آخر من وجوه التغيير على مستوياته المختلفة .

ولما كان التاريخ هو وعاء الخبرة البشرية فهو يعتبر السجل الخاص بالجهود البشرية أو هو المحاولة التي تستهدف الإجابة على الأسئلة التي تتعلق بجهود البشرية في الماضي وتستشف منها جهود المستقبل . والتاريخ بهذا المعنى يتحول إلى علم له أصوله . حيث أن العلم هو الكشف عن طبيعة الأشياء ثم تصنيفها وتبويبها وإصدار الأحكام عليها .

ولما كان التاريخ كفرع من فروع العلوم يتطلب البحث عن التفاصيل فإنه يتطلب أيضاً توسيع الرؤية بحيث يستطيع الباحث أو المؤرخ أن يرى النقـاط المحورية التي يدور حولها تطور البناءات الإجتماعية أو بمعنى أدق تطور بناءات القوة في المجتمع .

ولكن ما هو بناء القوة ؟

هناك شبه إتفاق بين علماء الإجتماع السياسي على أن بناء القوة هو : « ذلك النمط الذي يتوزع به النفوذ بين الأشخاص والنظم والتنظيمات والأفكار داخل المجتمع».(١) والقوة تمثل في حقيقتها ظاهرة عامة في المجتمعات الإنسانية .

(١) J. dunner (ed.), Dictionary of political science, London; Vision Press, 1965, P. 423.

وهى تقع فى جميع القطاعات النظامية وغير النظامية داخل المجتمع . فهى توجد كامنة فى الروابط والمجتمع غير النظامى ولا تتحول إلى قوة نظامية وسلطة إلا فى التنظيم الرسمى .

أما القوة فى التنظيم غير الرسمى فهى تصدر عن أو تعتمد على المكانة الإجتماعية . إذ يتفاعل الأفراد فى هـــذا السياق وفقاً للمفاهيم المرتبطة بالمكانة التى يشغلونها ، فضلا عن ذلك التفاعل الشخصى فيما بينهم . وإذا ما تداخلت الأدوار التى يلعبونها تنشأ الجماعات الفرعية التى قد تمارس ضغوطاً غير منظورة على التنظيم وعلى المعايير التى يمكن أن يتولد عنها بناء أعلى للسلطة . وتظل هذه السلطة عرضة للتغيير مهما بلغت درجة متانتها وقوتها . والقوة تظهر فى الروابط على شكلين : أولهما تنظيمى كسلطة يمارسها التنظيم الرسمى، وثانيهما غير تنظيمى وهى قوة الروابط غير الرسمية . هذا ويتوقف قيام ، بل وإستمرار النظـام الأساسى فى المجتمع على القدر الذى يتاح له من القوة . فالقوة هى الأساس الذى يقوم عليه بناء الرابطة . وبدونها يتعذر على النظام أن يقـوم ، هذا فضلا عن أن السلطة لا يمكن أن تقوم دون أن تمارس القوة ممثلة فى الاجبار كجزاء نهائى عند الاقتضاء .

تعريف القوة :

إن مشكلة تعريف القوة كانت دائما مادة قام ويقوم عليها الكثير من الجهد العلمى المرتبط بمحاولات بحث العلوم الإجتماعية بعامة وعلى السياسة والإجتماع السياسى بخاصة . ولقد شغلنا البحث فى إستكناه الحقائق المتصلة بمفهوم القوة ردحا طويلا إستعرضنا فيه فى بحث سابق لنا(١) شتى جوانب التطور التى

(١) أنظر : اسماعيل على سعد ، نظرية القوة ، مرجع سابق

إرتبطت بهذا المفهوم عبر التجربة الإنسانية الممتدة من أقدم العصور وحتى يومنا هذا ، وقد يحق لنا أن نتصور أننا إستطعنا فى نهاية الأمر أن نستخلص مفهوماً عاما حاولنا أن نضع فيه خلاصة ذلك كله فى تعريف نحسبه يلم بخصائص هذا الجوهر (القوة) الذى تغلغل ويتغلغل فى النسيج الحضارى الذى ينعكس فيه الجهد الإنسانى على هيئة نظم وأنساق كائنة ما قد تكون أوصافها فى مصنفات المعارف الإنسانية بأسرها وليس فى مجموعة العلوم الاجتماعية وحسب .

وهذا التعريف هو : أن القوة «هى محصلة الأشكال المختلفة للقوى التى تعمل وتتفاعل داخل النسق الاجتماعى ، على ما قد يكون فيها من تجاذب أو تضاد والتى ترسم فى النهـاية وتحدد الشكل والمسار اللذين يتخذهما النسق الاجتماعى السياسى ، أى القوة المؤثرة (الفعالة) فى المجتمع » . أو هى القوة السياسية إذا كانت هـذه القوة تعنى إدارة شئون المجتمع بشتى مناحيها .

وليس من الممكن بالطبع فهم هذا التعريف بطريقة مباشرة ودون إستعراض شامل لعلاقات القوة التى تعكس دينامية الحياة الإنسانية على النحو الذى فصلناه فى بحثنا المشار اليه .

القوة والإتصال

وقد أدت بنا محاولتنا لإستكناة حقائق القوة إلى ملاحظة الإرتباط العضوى الثابت بينها وبين ما يتعارف عليه الآن ، بالإتصال ، إذ من الواضح أنه من غير الممكن فهم أيها (أى كل من القوة والإتصال) بمنأى عن الآخر . ويتضح من النظرة الدارسة أن القوة والإتصال يوجدان معا فى كل العلاقات المجتمعية : فهما يوجدان فى الوحدات الداخلة فى تكوين المجتمع ، كما يوجدان بين هذه الوحدات والوحدة الفوقية Supra – Unit ، وكذلك بين الطبقات العليا الضابطة للمجتمع وبين مادونها من طبقات يقوم المجتمع على حركتها .

وينصرف إهتمامنا الأساسى فى هذه الحالة إلى العلاقة الأخيرة (أى العلاقة بين الطبقات العليا الضابطة للمجتمع وبين الطبقات التى تليها) . إذ أن القوة والإتصال فى هذه العلاقة المركبة ، هما عاملا التنفيذ الرئيسيان اللذين يتحقق من خلالها نقل إشارات مراكز الضبط إلى الوحدات التى تقوم بأداء الوظائف الإجتماعية ، والتى تعكس إستجابات هذه الوحدات بحيث يتهيأ للمراكز الضابطة أن تقيم وتعدل من مواقفها على نحو يبقى على التوازن فى علاقات القوة بالمجتمع . فالشبكات التنظيمية وتشكيل الإتفاق إن هى فى حقيقتها إلا نظم تتمثل فيها القوة وقنوات الإتصال فى آن واحد .

وما إنتهينا إليه فى الفقرة السابقة قد لا يروق بعض الباحثين ، ولذلك فإنه ينبغى علينا أن نناقش بإقتضاب بعض ما يثيره أصحاب النظريات الطوعية والجمعية فى تصورهم لنظام إرشاد مجتمعى يقوم على الإتصال دون مؤازرة القوة . وهذه المقولة تحملنا نطرح سؤالا عن ماهية العلاقة بين القوة والإتصال[1] .

---

(١) حاول الباحثون دائما ، فيما يتعلق بالعلاقة بين القوة والإتصال ، =

لقد كانت هناك محاولات جادة ومتكررة في مجالات العلوم الإجتماعية والسياسية للإستغناء عن مفهوم القوة . وإستعراضنا لكتابات هؤلاء الباحثين

= أن يستشفوا طبيعة أو ماهية هذه العلاقة ، ونلاحظ على وجه العموم أن جهود الباحثين إنصرفت إلى تناول بعض جوانب هذه العلاقة على نحو أدى إلى خفاء بعضها الآخر ، كما هى الحال في محاولة « بوكلى » القيمة لتعريف القوة على أنها : شكل نوعى لتيار الاتصال . وقد سبق أن تناولنا هذه المحاولة في كتابنا « نظرية القوة » على النحو التالى الذى نحب أن نورده هنا على سبيل الايضاح : « .... نظرية الأنساق كما رسمها W. Buckley في كتابه علم الاجتماع ونظرية النسق الحديثة ، تقترح طريقة يمكن أن يعاد فهم القوة على أساسها ، وهى النظر إلى القوة على أنها : شكل نوعى لتيار الاتصال . ويعطينا « بوكلى » نموذجا سيبرنطيقيا Cybernetic وليس نظاميا أو آليا للنسق الاجتماعى . فالمجتمع يضم نسقا من الميكانيزمات والكيانات والأنساق الفرعية السوسيو ثقافية المتصلة ، يربطها ببعضها البعض تيارات الطاقة والاعلام الفيزيقية وعلى مستوى النسق الاجتماعى والثقافى ، وتكون المكونات الفيزيقية والطاقة لتيار Flow ذات أهمية هامشية وحسب ، يكون النسق في الغالب الأعم مرتبطا ببعضه البعض عن طريق تبادل المعلومات الذى يوجه عند المستويات النظامية وتضم تيارات الاعلام هذه علاقة بين مجموعات متنوعة البناء .

وبهذه اللغة السيبرنطيقية يمكن تعريف القوة — في أعم مستوى — على أنها : « ذلك النمط من تيار الاعلام الذى يرمز إلى سلوك غير متعلق بارضاء الذات بالنسبة لمتلقى » . ومعنى العبارة الأولى من التعريف واضح ، إذ أنه يتبع مباشرة في نموذج « بوكل » السيبرنطيقى للعمليات الاجتماعية . ولكن المصطلح المقتضب الذى يوحى بالأخلاقيات — في غير زمانها — «السلوك غير المتعلق بارضاء الذات» ، يتطلب شيئا من التوسع ، وهذا المصطلح يقصد به إخراج نمطين معينين من أنماط السلوك من التعريف ، حيث يكون مفهوم القوة غير وارد .

١ — السلوك المطلوب لاشباع الحاجات البيولوجية والفسيولوجية العصبية .

٢ — السلوك العضوى أو المفيد الذى يظهر فائضا للفوائد على التكاليف .

وسبب إستبعاد القسم الأول من السلوك واضح : إذ أن السلوك المطلوب لاشباع =

لا يوحى من وجهة نظرنا بأن مفهوم القوة غائب أو يمكن أن يكون غائباً، ولكن الواضح أنهم عمدوا إلى إجتنابه أو إستبعاده ضمناً ، وحاولو التركيز بدلا منه على الإتصال .

ونورد كمثال على ذلك ما يقوله K. W. Deutsch وهو من أبرز علماء السياسة المعاصرين : « إن الضبط ، فى حقيقته ، ينطوى على نقـــل الرسائل Messages ، وفهم عمليات الضبط إن هو إلا فرع من هندسة الإتصال ، وليس

= مثل هذه الحاجات يتولد ذاتيا . أما سبب إستبعاد القسم الثانى هو أن الجماعات والأفراد سوف تسعى إلى تحقيق نوع من التوازن على الأقل بين التكاليف والفوائد فى علاقاتهم بالجماعات والأفراد الآخرين . والسلوك الذى ينجح فى فصل ذلك عن طريق مدلول الاشارة عند « الفاعل » لن يكون نتيجة علاقة قوة ، ويكون مفهوم القوة غير وارد بالقدر الذى يكون به الاذعان ناتجا عن الحسابات والمنفعة سواء أكان ذلك فعليا أو مفترضا . والسلوك خارج عن نطاق هذين القسمين يشكل للوهلة الأولى دليلا على وجود علاقة قوة .

وبالرغم من تعقد هذا التعريف إلا أننا نستطيع أن نميزه بثلاث ميزات عن التعريفات المعتادة للقوة .

أولا : إنه يوضح أن القوة خاصية لعلاقة وليست للأفراد الداخلين فى هذه العلاقة : فالقوة طريقة نوعية للاتصال أى إشارة . ولكن :

ثانياً : لا يكون للاشارة معنى إلا فى إطار مدلولات للفاعلين فى موقف ـ أى مرسل ومتلقى الاشارة أو تيار الاعلام .

ثالثاً : تكون مدلولات الاشارة من جانب الخاضع ، إذ أن التحديد الذى يخضع له سلوكه المفيد لذاته ، هو الذى يرمز إلى وجود علاقة قوة .

وذلك يعنى أن سلوك الطرف المتلقى فى العلاقة ينبنى على المدلول الذى يربطه أو يخرج به هو من الاشارة التى ينقلها إليه تيار الاعلام والتى تجعل سوكه (أى سلوك المتلقى) يتخذ شكلا معينا بحسب قيمة مدلول الاشارة عنده وأثره فيه .

من هندسة القوة »(١) .

ومن ثم فإنه ينظر إلى الحكم على أنه شبكة من الإتصال أو نسيج متفاعل من الأعصاب وتقوم هذه الشبكة بحمل الإشارات من مراكز الضبط المختلفة إلى الوحدات التي تقوم بالاداء ، ثم تعيد الرسائل منها إلى مراكز الضبط. وتختلف هذه الشبكات في وضوح رسائلها وفي درجة التشويش التي تعتور عملية الإتصال. ولكن إذا ما وصلت الرسائل الملائمة إلى الملتقى الملائم،وفهمت بوضوح، فالمتوقع أن تحدث هذه الرسائل الفعل الملائم ، وذلك ليس عن طريق قوتها ولكن عن طريق التغيير الذي تحدثه في نمط معلومات المتلقي . وهذه العملية تشبه إدخال المفتاح الملائم في الثقب الملائم. فالمهم هنا ليس ذلك القدر من القوة الذي يستخدم لإدارة المفتاح ، ولكن المهم إستخدام المفتاح الملائم ، وكم التغيير الناجم في هذه الحالة ، لا يتناسب مع قوة الإشارة التي غالباً ما تكون شديدة الضعف . ويتضح ذلك من أن قوة الرصاصة المنطلقة لا تتناسب بالضرورة مع القوة التي تضغط بها على الزناد(٢) .

وعلى النقيض من ذلك فإن العلماء الذين يقومون بتحليل القوة يفترضون أنه لإحداث الأثر لابد من إستخدام القوة حتى تقلل المقاومة،وإن درجة الفعل أو إحداث الأثر تتأثر بشكل كبير بدرجة القوة المستخدمة،إذ أن القدر القليل

---

(١) Deutsch, « communication theory and Political Integration, in Jacob and Toscano, the integration of political communities, N Y. wiley & sons, P. 49.

(٢) أنظـــر :

Amitai Etzioni, The Active Society, N. Y. 1972, Ch. 13.

من القوة لا يحدث إلا قدراً قليلا من الأثر ، إن لم تكن المقاومة منخفضة أو منعدمة بالفعل .

ومع أن ضرب المثل بعملية إطلاق الرصاص يبدو مقنعا ، فإن القدر القليل من القوة الذى يستخدم فى الضغط على الزناد لا يفسر قوة الرصاصة فى تغلبها على قوة الجاذبية والإحتكاك بالهواء . فما الضغط على الزناد فى هذا الحال إلا بمثابة نقل رسالة ، لا تجاوز الأمر بإطلاق النار فى تلك اللحظة . أما العامل الحاسم فيما يتعلق بقوة إندفاع الرصاصة يتمثل فى كمية البارود المخزونة فى غلاف الرصاصة ، وتقتصر مهمة الزناد على مجرد الإطلاق .

ودعنا نضرب مثلا يجلو اللبس الذى ينطوى عليه منطق هؤلاء الباحثين الذين يعمدون إلى التركيز الكامل على الإتصال وإهمال القوة . فإننا إذا ما إفترضنا أن حكومة ما أصدرت أمرها إلى أحد قوادها بأن يغزو منطقة معينة ، فإننا نجد أن الباحثين المعنيين بالتركيز على الإتصال دون غيره من العوامل ، لا يتناولون بالبحث إلا الأمر الذى تصدره تلك الحكومة الى قائدها ، وما إذا كانت الإشارة (الأمر) قد تلقاها هذا القائد واضحة أو غامضة ، أو تلقى إشارات متضاربة فى آن . ثم يقف هؤلاء الباحثين عند ذلك ، على أساس أن شيئاً ما ان يحدث أى أن أية قوة لن تمارس ، متجاهلين بذلك الشق الأهم وهو : ماذا يحدث إذا تلقى القائد الإشارة واضحة ؟

وهنا نستطيع القول أن قدره القائد على الفعل لا تنبنى على مجرد الإشارة التى تلقاها ، إذ أن هذه القدرة تحددها الأدوات المتاحة له ، مثل عدد القوات التى تحت إمرته ، وقدرته على تحريك هذه القوات وتحويل هذه الأعداد إلى قوة فعالة . فبدون هذه القوات تكون قدرة القائد على الإستجابة للإشارة

(الأمر) لا تعدو قدرة الرصاصة على الإنطلاق إذا إنعدم وجود البارود فى غلافها . والأمر الفعال فى إستجابة القائد للإشارة هو فهمه للقوة التى سيمارسها عليه مركز الإشارة إذا لم يستجب الأمر .

ونحن لا نقلل بذلك من أهمية الإتصال بأى حال ، إذ أنه ولا شك يؤثر فى الفعل ، ولا بد من دراسة العوامل المختلفة التى تتحكم فى إنسياب الإتصال ذهاباً وجيئة ، إذا كان لنا أن نفهم ديناميات الفعل المجتمعى .

ومن المفيد أن نلاحظ أيضاً أن القدر الذى يستخدم من الطاقة فى نقل الإتصال يكون فى العادة منخفضاً نسبياً عما يترتب عليه من نتائج .

التلازم بين القوة والاتصال فى المجتمع : [1]

ونستخلص من هذا أن الدراسة التحليلية للإتصال لا بد وأن تقترن بالدراسة التحليلية للقوة بأشكالها المختلفة ، ولا يمكن بأى حال من الأحوال أن تغنى هذه عن تلك ولكى نفهم أنماط السلوك المختلفة للأفراد الداخلين فى الفعل ، لا بد لنا من أن نعرف القوى التى فى حوزتهم ومدى فعالية شبكات إتصالهم . ولا تقوم الطبقات العليا الضابطه للمجتمع على أساس أنها صيغ ذات مدلولات إشارية وحسب ، ولكن لا بد لها من أن تستحوذ على قوة مؤازرة خاصة بها .

وهكذا فإنه إذا لم تستجب وحدة ما لإشارة تصدر إليها من الطبقة العليا الضابطة فإنه لا بد من أن يكون بوسع هذه الطبقة أن تجعل الوحدة تتصرف بما يتفق مع الإشارة ، لا عن طريق إرسال إشارة أخرى أكثر وضوحاً ، وإنما عن طريق إرسال وحدة أخرى لتجبر الوحدة العنيدة على الإنصياع والإذعان .

(١) أنظر ملاحظات مقتضبة فى هذا الصدد فى :
Brent and Budd, op. cit. pp. 113 — 114.

والكلام الذى أوردناه مجرد مثال ينطبق على الناحية العسكرية ، وتظهر النظرة الشاملة أن الحقائق التى ينطوى عليها هذا المثال تنطبق تماماً على مختلف الوحدات والتنظيمات الإجتماعيـــة على إختلاف فى نوع القوة المؤازرة أو الملزمة .

ويمثل بعض الباحثين لما أوردناه بما حدث فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٥ ، عند ما أمر الرئيس جونسون شركات الألومنيوم بألا ترفع سعره ، قائلين بأنه لم يكن يتأتى للرئيس جونسون أن يفعل ذلك ما لم يكن فى حوزة الإدارة الأمريكية قدراً كافياً من هذه المادة يمكنها أن تطرحه فى السوق وتؤثر به على الأسعار .

والأمر فى نظرنا لا يقتصر على ذلك ، إذ أن ضرب مثل هذه الأمثلة قد يضيق المفاهيم ولا يعبر عما لعمليات الإتصال من تعدد وتعقـــد وإرتباط وثيق بمفهوم القوة والقدرة على ممارستها . وواضح أن هذه النظرة السطحية ترجع إلى نمط الفكر أو الإيديولوجية السائدة فى هذه المجتمعات التى تحب أن تصنف نفسها تحت ما يسمى بالليبرالية . والتفكير البسيط يظهر أن الحكومات أو الطبقات العليا الضابطة تستحوذ على الكثير من الوسائل التى تهيء لها القدرة على تحقيق الإذعان . وهذه الوسائل تتخذ أشكالا عديدة ، وبدونها لا يتأتى التوازن فى علاقات القوى التى يقوم عليها إستقرار المجتمع ، ومن أوضح هـذه الأشكال القوانين التى تتحقق من خلالها عمليات الضبط .

ويتضح من هذا إذن أنه على الطبقة العليا الضابطة أن تتخذ دائماً نوعين من القرارات : (١) .

(١) أنظر Amitai Etzioni, op. cit. pp. 335 — 6.

أ — قرارات تتعلق بنوع الإشارات الإتصالية التي تصدرها .

ب — وأخرى تتعلق بنوع القوة التي تستخدم لمؤازرة هذه الإشارات .

ونحن نرى أن القرار في هذه الحالة لا ينطوي على إتخاذ نوعين مختلفين من القرارات ، وإنما على نوع واحد يحدد الإشارة التي تستهدف إحداث الأثر ، وينطوي في الوقت نفسه على نوع القوة المؤازرة لهذه الإشارة وإن جاء هذا في معظم الأحوال ضمنيا بالنسبة للمتلقي .

وهذا الأمر في حد ذاته يدل على التلازم الوثيق بين الإتصال والقوة أو بالأحرى القوة والإتصال .

ومع ذلك فإنه لا يلاحظ في كل حال أن الطبقات العليا تستحوذ على قدر من أرصدة القوة العسكرية يتناسب في الكم مع عدد الإشارات التي يمكن لهذه الطبقات أن تصدرها . إذ أن هناك ولا شك العديد من الإشارات التي تلقى استجابات تلقائية لدى الفاعلين أو لدى الجموع نتيجة الخلفية التاريخية العامة والمعتقدات التي تسود في مجتمع معين .

ومع ذلك فإنه لا يلاحظ في كل حال أن الطبقات العليا تستحوذ على قدر من أرصدرة القوة العسكرية يتناسب في الكم مع عدد أو نوع الإشارات التي يمكن لهذه الطبقات أن تصدرها ، إذ أن هناك ولا شك العديد من الإشارات التي تلقى إستجابات تلقائية لدى الفاعلين أو لدى الجموع نتيجة الخلفية التاريخية العامة والمعتقدات التي تسود في مجتمع معين . وهذا يعني أن المصدر يستطيع أن يهيء لنفسه ويستفيد بقدر من القوة الممكنة يضيفه إلى القوة الفعلية المتاحة له إذا إستطاع أن يأخذ في إعتباره ويحسب على وجه الدقة أبعاد الخلفيات والمعتقدات السائدة بين المتلقين .

وليس ذلك فحسب ، إذ من الملاحظ أيضاً أن الطبقة العليا تستطيع أن تصدر إشارات تتطلب قـــدراً من القوة لمؤازرتها قد لا يكون متاحاً لها عند إصدار هذه الإشارات وهذه الحقيقة التى قد تبدو بسيطة يمكن أن يعلل بها للثورات الشعبية التى قد تقوم على حين غرة عند ما تبالغ الطبقة العليا فى تقييم مدى فعالية الأرصدة المتاحة لها من القوة ، أو عند ما تكون على دراية بهـذه الأرصدة ولكنها تعمد إلى خداع متلق الإشارات (جموع الشعب) بإيهامهم بقدرتهـا على ممارسة القدر الكافى من القوة لإجبارهم على الإستجابة عند الضرورة .

وإذا شئنا أن نضرب مثلا ثانياً يتصل بالواقع السياسى المعاصر ويبين ما قد تنطوى عليه إشارة ما من عناصر قوة يمكن تحريكها وإستخدامها على نحو يفيد المصدر ويمكن أن تتعدى آثارها النطاق المحلى وتلعب دورها فى نطاق أو نطاقات أخرى ، فإننا نشير إلى ما أعلن فى الثامن والعشرين من أكتوبر ١٩٧٨ من أن مجلس الوزراء الإسرائيـــلى إتخذ قراراً بتوسيع وتكثيف المستوطنات الإسرائيلية المقاومة على الضفة الغربية لنهر الأردن ، وذلك فى الوقت الذى تجرى فيه فى واشنطن المفاوضات بين مصر وإسرائيل لصياغة إتفاقيـة السلام بين البلدين على الأسس التى توصل إليها فى محادثات Camp David ، والتى إستهدف الرئيس « أنور السادات » أن يهيء من خلالها السبل التى لا تؤدى إلى عقد صلح بين مصر وإسرائيل فحسب ، بل وإلى إتاحته الفرصة للحل الشامل للمشكلة العربية الإسرائيلية والمشكلة الفلسطينية بكل جوانبها . وذلك من خلال ما يترتب على الإطارين المعروفين بمقررات Camp David ، واللذين تصر مصر على أن التقدم فى المفاوضات بشأن أيهما يرتبط بالتقدم فى المفاوضـات بشأن الآخرى ، ولذلك فإن الإدارة الأمريكية تسعى سعيها فى سبيل إيضاح

ماينطوى عليه الإطار الأول (الخاص بالضفة الغربية وقطاع غزة) للملك حسين وفلسطينيى الضفة الغربية حتى يقوموا بدورهم . ومن ما تؤكده الإدارة الامريكية إتساقاً مع الموقف المصرى أن المستوطنات الإسرائيلية على الضفة الغربية . ستجمد خلال فترة المفاوضات وبعدها وأن القدس الشرقية جزء من الضفة الغربية ، وبينما تقوم الإدارة الأمريكية بذلك يصدر مجلس الوزراء الإسرائيلى قرار توسيع المستوطنات الذى أشرنا إليه مما أدى إلى شروع مصر فى سحب مفاوضيها من واشنطن من ناحية وإلى تعثر جهود الإدارة الأمريكية مع الملك حسين وفلسطينيى الضفة الغربية من ناحية أخرى ، مما حدى بالرئيس الأمريكى أن يوجه رسالته شديدة اللهجة إلى رئيس الوزراء الإسرائيلى ، الذى وجد فى سياق الأحداث الحالية فرصة تمكنه من الرد على نحو وصفه المتحدث بأسم الحكومة الإسرائيلية بأنه يتناسب شدة مع المذكرة الأمريكية . وبالرغم من أن نص هذا الرد لم ينشر حتى كتابة هذه السطور ، إلا أن المراقبين العالميين يرون أنه ما كان يتأتى لإسرائيل أن تتخذ قرار توسيع المستوطنات كرد فعل للمساعى الأمريكية فى الضفة الغربية ما لم تكن تعلم أن بحوزتها قدراً من القوة تستطيع به مؤازرة قرارها وتتمثل هذه القوة فى أن إنتخابات نصف المدة Mid-term Elections (١) الامريكية قد أصبحت وشيكة وأن موقف الرئيس الأمريكى كارتر إزاء التصرف الإسرائيلى سيتقيد ولاشك بالرغبة فى تهيئة فرص

(١) تصادف هذه الانتخابات منتصف فترة رئاسة الرئيس كارتر ، وسوف تجرى فى السابع من نوفمبر ١٩٧٨ ويتم خلالها إنتخابات كل أعضاء مجلس النواب وخمسة وثلاثين شيخا (أى ثلث أعضاء مجلس الشيوخ الذى يبلغ عدد أعضائه مائة) وستة وثلاثين من حكام الولايات (عدد حكام هذه الولايات ٥٠ حاكما) وعدد لا حصر له من المسئولين على المستوى المحلى ومستوى الولاية .

النجاح لمرشحى الحزب الديمقراطى التى تلعب أصوات الناخبين اليهود دوراً مؤثراً فيها .

فالواضح فى هذه الحالة أن المصدر لم يعط إشارته إلا بعد حساب دقيق للقوة الممكنة Potential Power التى يسمه أن يحيلها إلى قوة فعالة . والأمر بالغ الدلالة هنا أن نلاحظ كيف يتأتى لقوة خارجية أن تمارس ضغطا على الإدارة فى دولة لا يمكن القول بأنها تفوقها قوه فحسب ، إذ لا وجه للمقارنة على الاطلاق بين القوتين ، ولكن الرابطة الإيديولوجية بين إسرائيل ويهود أمريكا تخلق من هؤلاء جماعات ضغط بالغة التأثير فى تشكيل الرأى العام الأمريكى وتسيير السياسة الأمريكية على نحو يتوافق مع المصالح الإسرائيلية .

ويتجلى من هذا المثال الرابطة الوثيقة بين عناصر القوة والإيديولوجية والإتصال والرأى العام من ناحية ، ويوضح من ناحية أخرى كيف يتعدى ذلك كله النطاقات المحلية والقومية ، بل والدولية .

والتلازم الدائم بين القوة والإتصال الذى يبلغ مبلغ الرابطة العضوية ، والذى أسلفنا الإشارة إليه ، لا يمكن بيانه من خلال ديناميات التغير الإجتماعى والمجتمعى فحسب ، بل ومن أن القوة والإتصال قد يتداخلان على نحو يوحى بإمكان أن يحل أحدهما إلى حد ما محل الآخر . ونمثل لذلك بأنه إذا كانت الرسالة أقل وضوحاً ولكنها مؤازرة بقدر كبير من القوة ، أو كانت الرسالة تتميز بوضوح كبير ولكنها مؤازرة بقدر أقل من القوة ، فإننا نلاحظ أنه فى كلتا هاتين الحالتين تتحقق نتائج متشابهة ، ولكن حلول أيهما محل الآخر على هذا النحو ليس ، ولا يمكن أن يكون ، مطلقاً ، أى أن هذا الحلول جزئى وفى نطاق محدود ، إذ أن أكثر الرسائل وضوحاً إذا ما جوبهت بمقاومة لا يمكن أن

تؤدى إلى إحداث أثر ما لم توازر بقوة كافية وأن القوة الكافية تكون عديمة الجدوى إذا كانت الرسالة غامضة أو متضاربة عند وصولها للمتلقى .

وهذا فى حد ذاته يوضح التلازم الدئم أو الترابط العضوى بين القوة والإتصال . ونستخلص من هذا أن الاتصال المتكافىء هو الذى يتوازن فيه وضوح الرسالة مع درجة القوة المستخدمة فى مؤازرتها ، وفى هذه الحالة يتحقق الغرض الذى ينشده المصدر سواء أكان هذا الغرض هو : إحداث التوازن فى علاقة قوة ، أو تعزيز هذا التوازن ، أو إحداث خلل فيه على نحو يؤدى إلى تغيير طبيعة علاقة القوة . وتحت هذه الاحتمالات الثلاثة يندرج أى تغيير إجتماعى أو مجتمعى ، إبتداء من أية علاقة تنتظم فردين على أى مستوى من مستويات التعامل إلى الثورة التى تنتظم المجتمع كله بشتى علاقاته ونظمه .

ولا نقف عند هذا الحد دون أن نلفت إنتباه الدارس إلى أن لفظة القوة ، كما تستخدم فى هذا السياق لا تقتصر كما قد يتبادر إلى الذهن على مدلولاتها الفيزيقية فحسب ، وإنما القوة تشمل فى عمليات الإتصال كل الأوجه المباشرة وغير المباشرة والسمات الظاهرة والخفية والعناصر الفعلية والمحتملة . والإستخدام الكفء لعناصر القوة المختلفة هو ذلك الذى لا يقف عند فعالية الفعال منها ، وإنما الذى يأخذ أيضاً فى حسابه عناصرها المحتملة التى تحسن إستغلال الإيهام . وكلمة ، الإيهام أو الإيحاء ، هذه تنتقل بنا إلى ركيزة هامة من الركائز التى تقوم عليها عملية الإعلام Information . ولا يعنى هذا أن العمليات الإتصالية الإعلامية تقوم فى الأساس على الإستفادة من الجوانب السيكلوجية فحسب ، وإن كانت هذه الجوانب بالغة القيمة فى إحداث الأثر المطلوب .

والواقع أننا نرى أن الإيديولوجيات فى العصر الحديث لا تقف فى عملياتها الإتصالية أو الإعلامية عند طرح إستخدام حقائقها الاولى فى الإستحواذ على مشاعر الجماهير وتسييرها ، وإنما تضع فى إعتبارها الكثير مما ترسب فى وجدانات الناس عبر قرون طويلة من قيم ومعتقدات قد تتصادم مع ما تحاول هذه الإيديولوجيات طرحه . كما تضع فى إعتبارها مقولات الإيديولوجيات الأخرى ، ولذلك فإنه تظهر فى عملياتها الإتصالية مرونة وتكيفا قد لا يتفقان فى كل حال مع الإلتزام المطلق بالأفكار الاساسية التى تقوم عليها الإيديولوجية .

التأثير المتبادل بين الايديولوجية والاتصال : (١)

من اللازم قبل الشروع فى إيضاح تأثير الإيديولوجية فى الإتصال وتأثير الإتصال فى الإيديولوجية أن نحاول بعد أن إستعرضنا المفاهيم الأساسية للإتصال وإرتباطها بالقوة ، أن نقف على المعانى التى تعبر عنها لفظـــة الإيديولوجية كمصطلح .

قد ترتبط لفظة الإيديولوجيـة فى أذهان الناس بالماركسية على نحو يؤثر فى ردود أفعالهم إزاء المفهوم الذى تنطوى عليه . وواقع الحال أن اللفظة فى حد ذاتها لا ينبغى أن تصرف أذهاننا عن أن ما ينطوى عليه هذا المصطلح من معان أو مدلولات يرتبط بالأفكار المختلفة التى شكلت وتشكل أسس فكر الإنسان منذ القدم ، ومذ بدأت ملكاته الفكرية تطور القدرة على رؤية العلاقات بين الأشياء وإستكناهها .

---

(١) هناك معالجة هامة وواعية لمفهوم الايديولوجية فى:

Karl Mannheim, Ideology and utopia, London : Routledge & Kegan Paal, 1968, Ch. II.

ونبدأ معالجتنا لمشكلة الإيديولوجيــة بمحاولة تحديد مفاهيمها . وذلك بإستخلاص معانيها المتداخلة وتنسيقها على نحو يضفى شيئاً من الوحدة على ما يتصل ببعضه البعض من هذه المعانى . لأن تحديد هذه المعانى والربط بينها على النحو الذى تستخدم به فى عالمنا المعاصر يتيح لنا القــدرة على تحليل معنى الإيديولوجية من الناحية السوسيولوجية والتاريخية .

والنظر إلى الإيديولوجية بهذه الطريقة التحليلية يظهر لنا أن للإيديولوجية معنيين محددين — كما يقول كارل مانهايم — يمكن الفصل بينهما : أحدهما خاص والآخر كلى . ونحن نتجه إلى إستخدام لفظة الإيديولوجيـة بمعناها الخاص للدلالة على أننا نتشكك فى أفـكار الآخرين ، أو فيما يطرحونه . إذ أننا فى هذه الحالة نقدر أن هـذه الأفـكار إن هى إلا ستر خفية تخفى وراءها مواقفهم الحقيقيـة ، لأن إتاحة الفرصة للغير للتعرف الصحيح على هذه المواقف قد لا يتفق مع مصالحهم ، فهم يعمدون إلى الـكذب المتعمد حينا أو شبه المتعمد حينا آخر ، أو الإخفاء الحاذق للحقائق . وذلك كله بطريقـة تقوم على الحساب الدقيق للغاية والوسـيلة الذى قد يؤدى إلى إيهام الغير وإيقاعهم فى خداع الـكذب .

وهذا المفهوم للإيديولوجية ، الذى إن هو إلا تطوير تدريجى لفكرتنا عن الكذب ، مفهوم خاص من أوجه عدة ، وتبرز خصوصيته إذا ما قارناه بالمفهوم الـكلى . وفائدة هذا التعريف لنا من الناحية المنهاجية أنه يعكس الصلة الوثيقة بين الإيديولوجيـة والإتصال ، وليس ذلك فحسب ، وإنما يبين بشـكل مباشر أثر الغاية المرجوة من العمليات الإتصالية على ما قد تطرحه الإيديولوجية .

وعندما نتناول الإيديولوجية بمعناها الـكلى فإننا نعنى بذلك إيديولوجية

عصر بعينه أو جماعة إجتماعية تاريخية محددة كما هى الحال عند ما نتناول على سبيل المثال طبقة من حيث خصائصها والبناء الكلى لفكر هذا العصر أو تلك الطبقة .

ونستطيع من خلال ذلك أن نرى بوضوح معايير التفرقة بين ما هو خاص وماهو كلى فى الإيديولوجية . فالعنصر المشترك بين هذين المفهومين أننا لا نعتمد فى محاولة فهمنا لمقاصد أصحاب الإيديولوجيات على ما يطرحونه أو على ما تعكسه آثار الحقبة التاريخية المدروسة من أفكار .

ويقع أثر الإيديولوجية بأى من معنييها المذكورين على الفرد أو الجماعة الذى أو التى يحاول أو تحاول فهمها ، أو الذى تتجه الإيديولوجية إلى طرح فكرة أو نسق من الأفكار عليه أو عليها . وللفرد الذى تتمثل فيه وحدة التلقى الأولى أفكاره الخاصة التى نمت وتشكلت نتيجة لخبراته ، وهذه الأفكار فى حقيقتها إن هى إلا وظائف Functions يدور حولها وجوده . وهـذا يعنى أن الآراء والأقوال والفروض وأنساق الأفكار التى قد تطرحها الإيديولوجيات لا تؤخذ على المعنى الظاهرى لها وإنما تفسر فى ضوء مواقف حياة الفرد الذى يعبر عنها . كما أن ذلك يعنى أن الطابع النوعى والموقف الحياتى للفرد يؤثران فى آرائه ومفاهيمه وتفسيراته .

ولذلك فإن هذين المفهومين الإيديولوجية يحاولان أن يجعلا من «الأفكار» وظيفة للفرد الذى يأخذ بها ، ولموقفه من بيئته الإجتماعية وبالرغم من أن هذين المفهومين للإيديولوجية يلتقيان فى بعض الجوانب ، إلا أنه توجد فوارق هامة بينهما نذكر أبرزها فيما يلى :

أولا : بينما يركز المفهوم الخاص للإيديولوجية على جزء فقط مما يطرحه

المعارض ويرى أن هـــذا الجزء هو الإيديولوجية ، وذلك بالطبع فيما يتعلق بمحتوى ما يعرض ، فإننا نلاحظ أن المفهوم الكلى للإيديولوجية يضع فى إعتباره الإتجاه الفكرى العام أو الكلى للمعارض على أساس أنه نتاج للحياة الجمعية التى يشارك فيها .

وقبل أن نعرض للفارق الثانى بين مفهومى الإيديولوجية ، ينبغى لنا أن نقف وقفة نوضح فيها المعنى الذى نقصده ببعض المصطلحات المستخدمة فى هذا السياق ونحسب أن ذلك يتأتى على وجه يقترب من الكمال إذا ما طرحناها مستخدمة فى تعريف للإيديولوجية وضعه واحد من علماء العصر البارزين هو « كارل مانهايم » الذى يرى أن : / « الإيديولوجية نتاج عقلى وظيفته حجب الطبيعة الحقيقية لمجتمع ما ، وهى تنبع تلقائياً من عقول أولئك الذين يستهدفون تثبيت نظـام إجتماعى بعينه . واليوتوبيات إن هى إلا أحلام تمن تلهم العمل الجمعى لجماعات المعارضة التى تهدف إلى تغيير المجتمع تغييراً كاملا . » / (١)

فهذا التعريف للإيديولوجية على إقتضابه يلم بالنوعين الهامين اللذين يمكن أن تندرج تحتهما الأفكار ، وهى العملى والخيالى ، ثم يبين لنا الطرفين أو العنصرين المجتمعين اللذين يميل كل منهما بحكم الموقع إلى الأخذ بأى من هذين النوعين من الأفكار ، وهـــذان العنصران هما ممارسوا القوة أو هؤلاء الذين يقومون بالحكم من ناحية ، ومعارضوهم من ناحية أخرى.(٢) فعلى حين يفرض

---

(١) أنظر : K. Mannheim, op. cit., pp. 174 and 122 - 24

(٢) أنظر معالجة للإيديولوجية السياسية فى :

Harvey wheeler, Democracy in a Revolutionary Era, Harmondsworth, Penguin Books, 1971, p. 197. seq.

الأمر الواقع نفسه على الإيديولوجية التى يستلهمها الحاكمون ويحاولون تطبيقها، فإننا نرى أن المعارضين يطرحون أفكاراً يوتوبية تنشد المثل الأعلى على غير المتحقق بقصد مخاطبة رغبات الجموع كوسيلة للتمهيد للوصول الى الحكم .

ويظهر شرحنا لتعريف « مانهايم » الأطراف الداخلة بالضرورة فى التفاعل الإيديولوجى الذى يرتكز فى الأساس على العمليات الإتصالية ، وهذه الأطراف تنقسم فى النظرة العامة إلى ثلاثة أقسام هى :

طارح للإيديولوجية ومعارض لها وجموع أو نسق إجتماعى بينهما يتأثر بها ويؤثر فيها وتوحى النظرة المدققة بأن تعريف الإيديولوجية على هذا النحو يبرز فى جلاء الصلة الحيوية بين الإيديولوجية والإتصال ، إذ من الممكن فى بساطة أن نستبدل لفظة طارح الإيديولوجية بلفظة «المصدر» وأن نستبدل لفظة « الجموع » « بالمتلقين » ، والمعارضون بالضرورة ضرب من المتلقين وإن كان يمكن إضفاء فعالية أكثر على دورهم فى المجتمع .

وفضلا عن القيمة الإيضاحية للمصطلحات التى ينطوى عليها شرحنا السالف ، فإن هذا الشرح يبرز فى الوقت نفسه حقيقة هامة هى مدار هذا البحث كله ، وهى الترابط العضوى بين عناصر القوة والاتصال والإيديولوجية وبالتالى الرأى العام .

ثانياً : والفارق الثانى بين مفهومى الإيديولوجية هو أن المفهوم الخاص للإيديولوجية يقوم بتحليل الأفكار على مستواها السيكولوجى الخالص ، فإذا ما إدعى على سبيل المثال أن المعارض أو الخصم يعمد إلى الكذب أو إخفاء أو تشويه موقف فعلى معين ، فمعنى ذلك أن كلا الطرفين — أى طارح الفكرة ومعارضها — لهما معايير مشتركة لقياس صحة الأفكار ويفترض تبعاً لذلك

أنه من الممكن دحض الأكاذيب وإلغاء مصادر الخطأ بالرجوع إلى معايير موضوعية متفق عليها ويقبلها الجانبان .

أما المفهوم الكلى للإيديولوجية فيختلف عن ذلك ، فإننا عندما نعزو إلى حقبة تاريخية معينة إطاراً فكرياً معيناً يختلف عن إطارنا الفكرى ، أو عندما نفكر فى طبقة إجتماعية تاريخية على أسس تخالف أسسنا الفكرية ، فإننا فى هذه الحالة لا نرجع إلى المحتوى الفكرى الفردى ، وإنما نرجع إلى أنساق الفكر التى تتشعب أصولها وإلى أنماط الفكر والخبرة التى تختلف إختلافاً بالغاً .

ثالثاً : والفارق الثالث بين مفهومى الإيديولوجية هو أن المفهوم الخاص بالإيديولوجية يعمل من خلال سيكلوجية مصالح ، بينما يستخدم المفهوم الكلى للإيديولوجية ضرباً من التحليل السيكلوجى الشكلى الوظيفى ، دون الرجوع إلى الدوافع ، مقتصراً على الوصف الموضوعى للإختلافات البنائية فى العقول التى تعمل فى إطارات إجتماعية مختلفة .

خلاصة :

لقد عنينا فى هذا الفصل بإيضاح الوجوه النظرية التى يمكن من خلالها تناول « الأفكار » على أنها إيديولوجيات تستخدمها عناصر القوة فى المجتمع لإقامة أو تعديل أو تغيير النسق الإجتماعى السائد من خلال عمليات وتكنيكات الإتصال التى تخلق الرأى العام وتشكله . بيد أننا لم نعرض على سبيل التمثيل لإيديولوجية بعينها مبينين أثرها أو آثارها فى مجتمع معين أو على حقبة تاريخية معينة ، ورأينا — على نحو يتسق مع منهجنا فى هذا البحث الذى يتوخى القيمة الحضارية لعلاقات القوة والإتصال والرأى العام دون التركيز على الوسائل التكنيكية التى تتضاءل قيمتها فى المنظور الحضارى الشامل — أن نؤجل ذلك (التمثيل) إلى أجزاء هذا البحث التى تعالج قضايا صناعة الرأى .

الفصل الثالث

وسائل الاتصال

- تمهيد
- وسائل الاتصال الجماهيري

تمهيد :

تناولنا الإيديولوجية ببحث تحليلى فى الفصل السابق ، يظهر العلاقة بينها وبين القوة ، ويعين الدارس على تبين جوانب هذه العلاقة وفهم طبيعتها. ويمكننا الآن أن نعرف الإيديولوجية على نحو يعكس رغم بساطته القيمة التى تترتب للإتصال تبعاً لذلك ، فنقول : إن الايديولوجية بالمعنى الذى يخدم السياق الحالى من البحث إن هى إلا : الأفكار التى تقوم عليها النظرية أو النسق السياسى (١) .

وهذا التعريف على بساطته يلم بأطراف كل الانساق الفكرية فلا تندرج تحته الاوجه المختلفة للمعتقد الدينى فى تطوره وضعياً كان أم إلهيا وحسب ، وإنما الانماط المتباينة للانسان الفكرية السياسية فى تطرفها وإعتدالها كما هى الحال فى الفاشية والنازية ومضادة السامية والتمييز العنصرى والإشتراكية والشيوعية والرأسمالية إلى غير ذلك .

وتكمن القيمة الحقيقية للإتصال فى كونه آداة كل هذه الانساق فى الوصول إلى السيطرة على مشاعر الناس وآرائهم وتشكيل نظرتهم ومواقفهم ومايعتقدون إزاء شتى الموضوعات التى ترتبط بالمجتمع كأفراد وجماعات . وهذا التشكيل إن هو إلا صياغة للرأى العام . أى أن الرأى العام يصاغ من خلال الإتصال ، وتتم عمليات الإتصال بالطبع من خلال قنوات وبوسائل معينة ، وهذه الوسائل وإن كنا لا نركز عليها فى هذا البحث لإرتباطها من حيث النوع بالجانب الميكانيكى للعملية الإتصالية ولا تعكس فى ذاتها قيمة حضارية تعدوقدرة الإنسان على إبتكار وسائل تؤدى أغراضاً . ويستبين من هذا أن الإنسان خلق وإتصل

(١) أنظر: The concise exford Dictionary, "Ideology".

وعاش وأقام النظم وبنى الحضارات قبل أن توجد هذه الوسائل التى يوليها الكثير من الباحثين أهمية بالغة كما لو كانت هى صانعة الحضارة ، فى حين أنها من نتاج جانب من جوانب النشاط الإنسانى ووسيلة من وسائل تفاعله . وهذا لا يعنى بالطبع أننا نقلل من أهميتها بأى حال من الأحوال ولكن همنا ينصرف فى الأساس إلى الجوانب الحضارية الخلاقة .

وقبل أن نتناول وسائل الإتصال بالعرض السريع نشير إلى أن عمليات الإتصال الجماهيرى ، سواء أكانت تتم بين الجماعات أو المجتمعات أو الدول أو الثقافات (١) فإن هـــذه العمليات تمثل أنساق إتصال تقوم على الصلة المشتركة inter - linkage بين أنساق إتصالية تحتية تعمل مع بعضها البعض وتشترك فى إحداث الأثر .

وتتركب هذه الأنساق التحتية من أنساق تحتية أصغر تتركب بدورها من وحدات إجتماعية أصغر يعتبر الفرد وحدتها الأساسية . ونتبين من هذا إذا ما إتجهنا بنظرنا إلى مجتمع معين — أن هذا المجتمع إن هو إلا نسق إتصالى مركب.

ومن خلال العمليات الإتصالية أو الإعلامية فى نطاق هـذا النسق الشامل تنشأ الآراء التى يكونها الفرد إزاء العالم الذى يحيا فيه وتستمد عناصر دوامها أو تغيرها . وواضح أن عملية الإتصال فى النسق التحتى الذى يتكون من فردين أو أكثر يترتب عليه تنظيم جماعى وإجتماعى يستمر من خلال الإتصال الإجتماعى Social Communication . ومن خلال هـذا الإتصال الإجتماعى تعرف أو تتحدد المعرفة والمعايير والقيم والقوانين والقواعد والأخلاق والأدوار

---

(١) أنظر : Edmund Leach, Culture and Communication, Cambridge Univ Press, 1976.

(أى كل موضوعات الإتصال) وتنشر بين الأفراد الذين يتكون منهم النسق الإتصالى.
وهذا يوضح كما أسلفنا فى مواضع أخرى أن العمليات الإتصالية تلم بكل الجوانب العقائدية والسياسية التى تحدد إتجاه المجتمع وتلم بدرجة كبيرة بأطراف هذا المجتمع من خلال وسائل الإتصال الجماهيرى.

وتنشأ أهمية دور وسائل الإتصال من أنها تقوم على تعليم الأجيال المتعاقبة ما ينبغى لهم أن يعرفوه عن ماضى الإنسان وحاضره وحضارته والكون المحيط.

وسائل الاتصال الجماهيرى :

لقد لعبت وسائل الإتصال الجماهيرى(١) وتلعب دوراً بالغ الأهمية فى إضفاء قسمات عصر التكنولوجيا على وجه العالم المعاصر. وقد أضفت هذه الوسائل على عمليات الإتصال قدرة على سرعته إحداث الأثر المطلوب من ناحية ووسعت دوائره من ناحية أخرى على نحو جعلها تتعدى النطاقات المحلية والقومية، فإتسعت مجالات الإهتمامات الإنسانية، وأوشك المقيمون فى أطراف الارض المتنائية أن يصبحوا جيرانا متقاربين.

ومن ثم فقد أصبحت وسائل الإتصال الجماهيرى من كتب وصحف وشتى ضروب الكلمة المطبوعة إلى الإذاعة والتليفزيون والسينما ومختلف أشكال الكلمة المسموعة والصور المنقولة أدوات يستعين بها الإنسان فى الدعاية لفكره وإقامة

---

(١) أنظر دراسات حول وسائل الاتصال الجماهيرى فى :

Erih Barnouw, Mass Communication, N. Y., Holt, Rinehart and Winston, 1956; R K. Chatterjee, India, National Book Trust, 1973; Ronald T. Farrar and John D. Stevens, Mass Media and the National Experience, N. Y., Harper & Row, 1971.

نظمة والتصدى لافكار ونظم الآخرين على نحو جعل المناجزة بالكلمات تسبق وتصاحب وتلاحق قعقعة السلاح .

ويبقى الإنسان دائماً فى حاجة إلى منطق الكلمة وقهرها قبل وبعد اللجوء إلى أسلحة الحرب وقسرها ، على ما فى الأولى من بيان إذا غلب الإنسان منطق الحق وما فى الثانية من إذعان إذا غلبت الإنسان أهواؤه أو تحرك لتحقيق ما ينبغى أن يحق . ولا نحسب أن وسائل الإتصال تعنينا فى البحث من نواحى تعريفها كأجهزة وأدوات فنية أو ميكانيكية ، ثم إننا ان نتعرض بالمناقشة للصحافة أو الإذاعة أو غيرهما كمهن ، وحسبنا أن نهتم بها كوسائل إتصالية ناقلة تقوم بأدوار بينية وما يترتب على ذلك من آثار إجتماعية وسياسية على النحو الذى تتضح به موضوعات هذا البحث ، فضلا عن الآثار العلمية والثقافية .

ولا يفوتنا قبل الإنتقال إلى الفصل التالى من هذا البحث أن نشير إلى حقيقة بالغة الأهمية ترتبط بتطور وهيمنة وسائل الإتصال الجماهيرى ، مؤداها أن هذه الوسائل أتاحت لمارس القوة قدراً غير عادى من الرقابة على نحو قد ينطوى على الكثير من الجوانب السلبية المرتبطة بفرض أطر معينة من الافكار على ما بها من موازة للأشكال السيئة لممارسة القوة بمعناها الفيزيقى والإيديولوجى ، وتوشك بذلك أن تتحول وسائل الإتصال الجماهيرى إلى أدوات ، تعمية تحجب عن رؤى الجماهير عناصر هامة قد تكون لازمة لصياغة الرأى العام على أساس سليم .

الفصل الرابع

الرأى العـــام

- تمهيـــد
- الاذاعات ودورها فى الرأى العام
- الرأى العام والاغتراب
- الرأى العام وعملية الانتخاب
- الرأى العام والكارزما
- الرأى العام والقوة العلمية
- الرأى العام فى منظور التاريخ

تمهيـد :

أشرنا فى الفصل السابق إلى أن وسائل الاتصال فى حـــد ذاتها لا تعنينا كأدوات فنيه وإنما تعنينا من حيث قيمتها الحضارية ، أى من حيث إستخدامها إستخداما فعالا فى العمليات الإتصالية التى تستهدف نشر أفـــكار ومعتقدات يمكنها أن تصوغ الرأى العام على نحو يؤثر فى كل ما يتصل بحياة الإنسان من أمور فى المواقف الخاصة والعامة للأفراد والجماعات فى النطاقات المحلية والقومية والدولية على شتى مستويات المعرفة والممارسة ، وما لذلك كله من تأثير على مسيرة البشر عامة .

ومن الطريف أنى لم أكد أفرغ من كتابة نهاية الفصل السابق ، وبينما أجلس إلى مكتبى(١) والأوراق والأقلام لم تزل أمامى ، وسياق الفكر ينحو مناح شتى ليجمع الشاردة إلى الواردة ، إذ حركت أصابعى مؤشر وسيلة الإتصال القريبه منى لأسمع التعليق اليومى الذى تذيعه هيئة الإذاعة البريطـانيه كل يوم عقب نشرة أخبار الحادية عشر مساء بتوقيت جرينتش ، وتصادف أن كان التعليق يتناول بالمناقشة موضوعا يطرحه مؤتمر « منظمة اليونسكو » فى هـذه الآونة فى باريس، ويتناول المؤتمر المشار اليه موضوع الحاجة إلى فرض نوع من الضبط على الأخبار والمعلومات التى تتداولها وسائل الإتصال الجماهيرية فى العالم بأسره، أو بلغة أدق إخضاع هذه المواد فى كل دولة إلى ضرب من الرقابة الفعالة . وذلك بقصد خدمة السلام العالمى والحيلولة دون نشر الأفكار التى تـؤدى إلى النزاع والشقاق الدولى من ناحية ، وإلى التأثير على القيم السائدة فى المجتمعات من ناحية أخرى .

---

(١) مساء الأحد التاسع والعشرين من أكتوبر ١٩٧٨ .

وخبراء اليونسكو يحاولون إصدار بيان عالمى بهذا الشأن بعد دراسة بدأت منذ ست سنوات وبعد ان إسترعت إنتباههم الآثار السلبية الجسيمة التى تقع على مجتمعات دول العالم الثالث ، نتيجة للهيمنة الكاملة أو شبه الكاملة للمؤسسات الإعلامية وقنوات الإتصال الكبرى التى تتمثل فى الإذاعات ووكالات الأنباء الغربية التى لها على قلة عددها قدرة وفاعلية فى مجالات ما يسود العالم الآن من إتجاهات وحرب دعائية واسعة النطاق وعميقة التأثير. وتبرز أهمية أدوار هذه القنوات الإتصالية إذا ما إستحضرنا فى الذهن النظم والأحوال السائدة بعامة فى بلدان العالم الثالث من ناحية ، والإيديولوجيات التى تستلهم قنوات الإتصال العالمية الوحى منها من ناحية أخرى .

وليس من الغريب أن نرى أن المعلق البريطانى يتخذ موقفا مضادا للإقتراح الذى يطرحه خبراء منظمة اليونسكو ، ويقول أن فرض هذا النوع من الضبط ينطوى فيما يتعلق ببلدان العالم الثالث على شكل من أشكال التمييز العنصرى ، إذ أنه يعنى أن شعوب هذه البلدان لم ترق بعد إلى المستويات السائدة فى البلدان الغربية ، ويقول إن وسائل الإتصال الجماهيرى فى هذه البلدان قام الإستعمار بإقامتها قبل رحيله عنها لتحقيق أهداف ثلاثة على التحديد هى : الإعلام والترويح ، والتعليم ، ويقف عند ذلك دون أن ينتهى إلى ما آل إليه أمر هذه الوسائل فى ظل النظم التى سادت بعد فترة الإستعمار ، وما لهذه النظم من إتجاهات إيديولوجية تتأرجح بين شرق وغرب ، ونادرا ما تثبت داخل نطاق تراثها الحضارى .

الاذاعات ودورها فى الرأى العام :

إن عنونتنا لهذا الجزء من الفصل لا تعنى أننا نقصر إهتمامنا على الإذاعات

فى معالجتنا لوسائل الإتصال الجماهيرى ، فمن منا لا يمكنه أن يلحـــظ الأدوار الفعالة لوسائل الإتصال الجماهيرى الأخرى من كتب وصحف وسينما وأشرطـة تسجيل وغيرها من كافة المصنفات الأخرى ؟ ولكننا نركز على الإذاعات المرئية والمسموعة لإتصالها المباشر بالجماهير الغفيرة بشتى قطاعاتها من الصفوة Elite إلى الأميين من العامة ، على ما هنالك من فارق بين الإذاعات المسموعة التى تتعدى النطاقات المحلية والقومية والإذاعات المسموعة المرئية التى تلعب دورها فى نطاقات محدودة .

وإذا ماشئنا أن نضرب المثل بإذاعة معينة فإن إختيار هيئة الإذاعة البريطانية B. B. C. يفرض نفسه علينا ، إذ فيها تتمثل الخـدمات التى تخاطب المستويات المحلية من ناحية والمستويات العالمية من ناحية أخرى ، بشكل يوشك أن يبلـغ مرتبة الـكمال ، إن كان الـكمال فى وسع الإنسان . ومعالجة دور الإذاعة البريطانية من الناحية المحلية أمر لا يتصل بسياقنا الحالى وكذلك فإنه لا يعنينا فى كثير الدور الذى تلعبه « جامعة الهواء » على سبيل المثال فيما تهيؤه من فرص ثقافية للشعب البريطانى .

ودعنا نلق نظرة على الخدمة العالمية World Service لنتبين ما يمـكن أن يكون لبرامجها من أثر وخطر . فهى تعنى بتتبع مسار الأحداث فى كل بقاع العالم وتذيع أخبارها فى أوقات ثابتة ومتكررة على نحو يضمن وصولها إلى شعوب مختلف البلدان فى أوقات تلائمهم .

وهذه الأخبار تصاغ على نحو ديدنه الحيدة ، وليس من الممكن بالطبع أن تكون الحيدة مطلقة ، إذ أن مثل هذه الحيدة تجـاوز طوق الإنسان ولا أحسب أنه مطالب بها إلا على سبيل الإدعاء الذى يتجاهل تركيب الإنسان وخلفيته .

ولكى تضفى هذه الإذاعة على أخبارها حيوية تستهدف الإستحواذ على أذن السامع فإنها تتبعها عادة إما بتعليقات تتناول قضايا الساعة التى تدور حولها هذه الأخبار ، أو رسائل صوتية من مراسليها فى مختلف البلدان الذين يتابعون هذه الأحداث عن كثب .

وإذا ما إنتقلنا إلى البرامج الأخرى فإنها تتنوع على نحو ، ليس سياقنا مجالا له . ونكتفى ببرامج قليلة على سبيل التمثيل . ففى المجال الثقافى نجد معالجات إذاعية لنتاج الأدب الإنجليزى على نحو يتراوح بين القصة البوليسية والأعمال الخالدة للأدباء العظماء من أمثال دوليم شكسبير ، ولا نشير إلى مجالات الإبداع الأخرى كالموسيقى وغيرها .

وهذا الضرب من البرامج يعكس ولا شك قسمة من قسمات حضارة بعينها . وهناك أيضا برامج سياسية تقوم على تحليل الأحداث الكبرى وتمثل لها بالبرنامج الذى يذاع فى الوقت الحاضر من حلقات أسبوعية تحت اسم Many Resons « Why » فهذا البرنامج يتناول بالمعالجة المستفيضة التورط الأمريكى فى فيتنام ، من أسبابه ودواعيه وحتى النتائج المترتبة على إنهاء هذا التورط بعد إتفاق باريس وقد عنى مقدمو هـذا البرنامج بإجراء النقاش مع كل من كانت لهم صلة بهـذه الفترة الهامة فى التاريخ المعاصر . فنسمع فى هذا البرنامج آراء أشخاص كالرئيس نيكسون ، والرئيس « ثيو » آخر رئيس لفيتنام الجنوبية قبل سقوط سيجون ، والمستر « كولبى » الرئيس السابق لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية C. I. A. ووزراء الخارجية المعنيين ، ومستشارى الرؤساء الأمريكيين الذين تعاقبوا فى هذه الفترة ، ومستشارى البنتاجون والقادة العسكريين ، وأساتذة السياسة والصحفيين والمعلقين ، وغيرهم . كل ذلك على نحو يتيح للمتلقى إلمامه شاملة لكل جوانب الموضوع وخفاياه .

بيد أننا نلاحظ أن الوجوه السائدة فى البرنامج توشك أن تكون أنجلو سكسونية وحسب ، على نحو يمثل وجهة نظر غربية — وإن كانت محايدة فى نطاق الغرب — مع أنها موجهة إلى متلقين تتباين أماكنهم على خريطة العالم .

ومن الناحية الدينية فإننا نلاحظ أن هذه الخدمة العالمية تعنى بالبث المنتظم للبرامج الدينية ، بالرغم من أنه يفترض أنها لا تخاطب أصحاب دين واحد، بل تخاطب الناس جميعاً دون الإلحاح على مفهوم دينى معين .

ويتضح من هذا أن هذه البرامج وغيرها تحمل فى مجملها قسمات حضارة معينة ، فى محاولة لتوسيع نطاقات نفوذ إيديولوجية هذه الحضارة . وليس هذا بمستغرب بالطبع ، إذا وجدنا أن مصدرى دائرة المعارف البريطانية — وهى آداة إتصالية هامة على المستوى العالمى — يقدمون أحدث طبعة لها على أنها تمثل التراث الغربى بعامة من المملكة البريطانية وحتى أستراليا . ولعل ذلك كما أسلفنا هو السبب فى إختيارنا الجزء الخاص من هذا البحث بالرأى العام للكلام فيه عن وسائل الإتصال الجماهيرى .

هذا من ناحية المنهج ، وقبل أن ننتقل إلى النقطة التالية نحب أن نشير إلى أن دول العالم المختلفة ، تقديرا منها لما لهذه الوسائل من خطر ، سوف تعقد فى هذا العام مؤتمراً فى مدينة جنيف هو المؤتمر العالمى للإذاعات الحكومية. وتستعد لذلك من الآن بدراسات مستفيضة اذ بدأ الخبراء فى دول العالم النامى يستشعرون خطرا داهما يتمثل فى أن الدول المتقدمة توشك أن تستنفد النطاق الاليكترونى وهو النطاق الذى تعمل من خلاله الموجات اللاسلكية المختلفة المستخدمة فى شتى ضروب الإتصال من الإذاعات إلى الأقمار الصناعية على نحو قد لا يتيح لهذه الدول الإستفادة بهذا النطاق أو بلغة أدق قد لا تجد لها مكاناً فيه ، إذا ما تهيأت

لها فيما بعد الإمكانيات التكنولوجية التى تستطيع بوساطتها أن توسع مجالات خدماتها فى هذا الإتجاه أو أن تطلق أقمارا صناعية . ونرى مثلا أن إحدى اللجان المتخصصة فى الكونجرس الأمريكى ترى فى الدراسة التى أعدتها عن هذا الموضوع أن ما تستحوذ عليه الولايات المتحدة الأمريكية من حيز فى هذا النطاق الإليكترونى تتمثل فيه أهميات بالغة ترتبط بحياة الشعب الأمريكى وأمنه القومى، اذ أنها تستخدمه فى مجالات الاعلام على المستويين الداخلى والعالمى، وفى شتى المجالات العلمية وغيرها إبتداء من تقدير المحصول العالمى للقمح وإنتهاء إلى مراقبة مدى إلتزام الإتحاد السوفيتى فى صنع صواريخه بما أتفق وما يتفق عليه فى مباحثات S. A. L. T. (1) ومن ناحية أخرى نجد أن بين الدول التى ستشترك فى المؤتمر وعددها يناهز المائة دولا سوف تصر على أن يحتفظ بحيز غير مستخدم فى النطاق الإليكترونى إلى أن تتهيأ لها فيما بعد سبل إستخدامه .

ولعله ما كان للباحث أن يلم بتفاصيل مثل تلك التى أوردناها فى هذا السياق دون الإستعانة فى إستقرائه لما يجرى فى عالمنا المعاصر بما هو متاح الآن من وسائل الإتصال التى تتناول براجها تمكس فى نفس اللحظة ما يدور هنا وهناك على المستوى العلمى وغير العلمى عن وسائل الإتصال الجماهيرية .

وينقلنا هذا السياق إلى ضروب أخرى من الإذاعات نكتفى هنا بمجرد الإشارة إليها، كالإذاعات التى تقصر جهودها على الدعاية لدين معين أو فكر معين والتبشير به . كما أنه لا يفوتنا أن نشير إلى الدور الذى تلعبه الإذاعات الموجهة على وجه العموم فى الربط بين أصحاب الإيديولوجيات الواحدة وإن تبعثروا فى أماكن متفرقة من العالم .

---

(١) مفاوضات تحديد الأسلحة الاستراتيجية .
Strategic Arms Limitation Treaty.

ومن الكلمة المسموعة التى آثرنا أن نبدأ بها لإتساع نطاق تأثيرها ننتقل إلى الكلمة المسموعة المقترنة بالصورة كما تتمثل فى التلفزيون والسينما. والتلفزيون على ضيق مجاله نسبيا بالمقارنة بالإذاعة ، يلعب فى العصر الحديث دورا بالغ التأثير فى النطاقات المحلية والقومية خاصة ، لقدرته على إستهواء الناس ، وهو ولا شك من أهم ، أو أهم ، وسيلة إتصال جماهيرية تستخدم على أوسع نطاق فى مجالات الإعلام والتعليم والتسلية. وهذه المجالات جميعا ترتبط إرتباطا وثيقا بعمليات صياغة الرأى العام من خلال إيديولوجيات القائمين عليها ، وإن كان بعضها يتوشح بأردية الثقافية المفتعلة التى تنأى بها عن شبهة الإنحياز .

ولا يزال للسينما دوراً تلعبه فى الإتجاه نفسه ، وإن كان التلفزيون قد حد من دورها نسبياً بقدرته على أن يغزو بيوت الناس من ناحية ، فى حين أن السينما تطلب من الناس أن يسعوا إليها ، وأن التلفزيون من ناحية أخرى يستفيد من إمكانيات السينما ، هذا وقد بدأ التلفزيون فى الآونة الأخيرة يستعين فى تخطى الحواجز القومية بما أتاحته التكنولوجيا المعاصرة من أقمار صناعية .

ومن الكلمة المسموعة والكلمة المسموعة المقترنة بالصورة ، ننتقل إلى أقدم أشكال الكلمة وأبقاها أثرا ، وهى الكلمة المطبوعة ، التى إستطاع الإنسان بوساطتها أن يحفظ تراثه فى شتى المجالات ، والتى كان وسيبقى لها من الخطر ما لا يمكن للباحثين أن يقيموه بأى حال من الأحوال والكلمة المطبوعة تأخذ أشكال الكتب والصحف فى مختلف أنواعها ولها جميعا فعالية وسائل الإتصال والإعلام الجماهيرية مع القدرة على إستدامة الأثر .

ويغرينا هذا بالإشارة أيضا إلى الدور الجسيم الذى تلعبه الصحافة فى حياة الإنسان وحضارته على تدرجها من الصحافة الصفراء إلى الدوريات التى تعالج أدق قضايا الفكر والعلم .

وخلاصة القول هو أنه لوسائل الإتصال الجماهيرية بشتى أشكالها قيمة حضارية فعالة ، وأن هذه القيمة هى التى تعنينا فى هذا البحث لما لها من أثر فى صياغة الرأى العام .

الرأى العام

إن النظر إلى الأحوال السائدة فى العالم على سعتة وفى المجتمعات التى يضمها يوحى — مع التأمل — بتلك الصعوبات الجسيمة التى تكتنف محاولة وضع تعريف شامل أو جامع مانع لما أصطلح على تسميته بالرأى العام ، وقد يكون النظر إلى قضايا الرأى العام أمر يقل صعوبة عن إستكناه مثل هذا المفهوم الشامل، ولكن المشكلة تكمن فى أن النظر إلى الرأى العام من خلال قضاياه ينتهى بنا لا محالة إلى عدد من التعريفات للرأى العام وليس تعريفا واحدا على النحو الذى تقتضيه المحاولة العلمية للتقنين . وهذا يعنى أن الباحث قد يضطر إلى الركون إلى ما هو إجرائى فى حين أنه يحاول أن يجمع كل العناصر الداخلة فى المامة شاملة .

ومن ثم فلنحاول بادىء ذى بدء أن نقصر النظرة فى نطاق يحد فنتناول قطاعاً محلياً يحاول صناع القرار فيه أن يتبنوا سياسة معينة إزاء موضوع بعينه، فإنهم ولا شك لا يستطيعون المقامرة بمكانتهم الإجتماعية Social Status أو بهيبتهم ، أو بشعاراتهم المعلنة التى قد تكون من عوامل تعزيز هذه المكانة أو الهيبة . ولهذا فقد يعتسفون قرارات تتضاد مع العواطف والإتجاهات السائدة بين الجماهير . وهم هنا يجابهون أحد أمرين : إما أن يحاولوا أولا التأثير فى هذه العواطف أو تلك الإتجاهات من خلال وسائل الإتصال على نحو يهيىء الناس لتلقى ما يتخذوا من قرارات أو أن يستلهموا هذه العواطف والإتجاهات ويحاولوا التوفيق بينها وبين قراراتهم .

ومحاولة التأثير فى مواقف الناس أو تغييرها ليس بالأمر الهين إذ أن هذه المواقف ترتبط بعناصر عديدة قد تستمد أصولها من تراث أو معتقدات تدعى لنفسها صفة الدوام ، ويتشكل بمقتضاها ما يمكن أن يسمى برأى عام . ومن هنا نستطيع القول بأن الرأى العام فى تعريف بسيط هو : «**حصيلة الآراء والمواقف والمعتقدات التى تعكس إتجاه نسبة مؤثرة من أفراد مجتمع واحد أو مجتمع ما إزاء موضوع بعينه**»(١) .

وعلى وجه العموم فإن كل رأى يرتأيه الإنسان يرتبط أو يتعلق بشيء ما ، وبقدر ما تتعدد الأشياء ، وبتعدد الأفراد تتعدد الآراء ، وكون الرأى العام «حصلة» لا يعنى بالضرورة إتفاق الجزئيات لدى جميع الأفراد إزاء شيء ما لتنوع خلفيات الأفراد وتعددها إذ أن الناس يختلفون ثقافة وفهما بالرغم من تشاركهم فى بيئة واحدة أو نسق إجتماعى واحد ، على نحو يوحى بأن الرأى العام ليس مجرد حصيلة بسيطة وإنما حصيلة مركبة بالغة التعقيد. ويترتب على ذلك بالتبسيط أننا إذا إفترضنا ثبات عدد جماعة معينة فإن الأفراد الداخلين منها فى محصلة الرأى إزاء موضوع معين ليسوا بالضرورة نفس الأفراد الذين يدخلون فى محصلة رأى معين إزاء موضوع آخر ، وإن كان الرأى العام فى كلتا الحالتين ينسب إلى نفس الجماعة. وهكذا دواليك بحسب تراكب وتعقد البناء الإجتماعى وتعدد موضوعات الرأى فيه . وكون الرأى العام حصيلة متغيرة على هذا النحو يقتضى أن ننصرف به إلى قضايا أو نطاقات معينة كلما حاولنا معيرته أو قياسه .

ولذلك فإننا نلاحظ أن الباحث فى مجال السياسة يعنى بأوجه أربعة يرتبط بها الرأى العام هى :

---

(١) أنظر : Public Opinion, in : Encyclopaedia Britannca

أ ــ النسق السياسى .
ب ــ النظام السائد .
جـ ــ الإطار الدستورى .
د ــ الطريقة التى تحسم بها القضايا .

والترابط بين هذه الوجوه الأربعة وترتيب التالى فيهما على السابق تتمثل أهميته فى أنه المحور أو الموضوع الذى يتعلق به محصلة آراء الناس .

وهذه الآراء التى قد تكون عميقة الجذور تشكل إتفاقاً عاماً . وبالرغم من أن هذا الإتفاق لا يمكن أن يكون مطلقاً إلا أنه هو الأساس الذى يضفى الشرعية على النظام القائم ويترتب على ذلك أن الإختلاف البين فيه يؤدى إلى إنهيار ذلك النظام .

الرأى العام والاغتراب

والباحثون فى السياسة والرأى العام إذ يفصلون فى نظرتهم فى هذا المجال بين ما هو سياسى Political وما هو إجتماعى Social إنما يحاولون التفرقة بين ماله أثر مباشر على شرعية النظام وبين مالا يتأتى أثره إلا بالتراكم . ويمكننا هنا أن نفرق بين الرأى العام المرتبط بالنظام وقضاياه السياسية العامة وبين الآراء العامة التى ترتبط بالمشكلات الإجتماعية . والبناء الإجتماعى السياسى المتين هو ذلك البناء الذى يستطيع صياغة الحصيلة المركبة للرأى العام على نحو يكفل إتفاقاً لا يؤدى فى أحسن الأحوال إلا إلى إغتراب Alienation[1] الحد الأدنى

---

(١) أنظر : Richard Schacht, Alienation, N.Y. Anchor Books, 1970, PP. 183-199.

من الأفراد والجماعات الداخلة فى تكوين المجتمع إذ أن فى الإغتراب يتجسد النفور Apathy واللامبالاة اللذان يعكسان شعور الفرد بعدم الإنتماء على نحو يخرب القدرة الإنسانية على الإسهام أو المشاركة Participation ومن هذا يستدل على الأهمية الجوهرية للتأثير الإتصالى والإعلامى على نحو يضمن مؤازرة المحصلة المركبة للرأى العام للنظام .

فالإغـــتراب إذن هو النتيجة الحتمية لفشل صناعة الرأى فى النسق السياسى السائد ، فى صياغة تشكيل الرأى العام .

وقد يتصور البعض مما أسلفنا أن الإتفاق العام فى الرأى قـد يعنى أن النسق السياسى المعين لا يمكن أن تنبثق عنه إلاجماعة سياسية واحدة تتخذ شكل حزب واحد مثلا ، ولكن هذا فى الواقـع غير صحيح ، إذ فى بلد مستقر من الناحيـة السياسية كالمملكة المتحدة ، مثلا نجد أن هناك إتفاقاً عاماً على الناحية الدستورية أى من حيث كيفية الإدارة وإتخاذ القرار ، ولم يحل ذلك دون قيـام أحزاب متعددة تتبنى أفكار متباينة ولكن فى نطاق الدستور غير المكتوب ، وتستطيع هذه الأفكار بالتحاور أن تصـل إلى أحسن السياسات التى ينبغى أن تطبق فى المجالات الداخلية والخارجية . فالسياسات إذن تختلف من حيث التفاصيل ولكن الممارسة وصنع القرار يرتبطان بأشكال مصطلح عليها .

بيد أن ذلك لم يحل فى الوقت نفسه دون بروز ظاهرة ، ترتبط بقرننا الحالى وهى تصميم بعض الإيديولوجيات على أن تطرح نفسها كمجـال وحيد ينبنى من حوله الرأى العام . ويلاحظ هذا فى النظام السائد فى الإتحاد السوفيتى على سبيل المثال ، إذ أن الماركسية ترى أنها وليدة جدل تاريخى تمثلت فيه عبر الحقب كل مراحل الأخذ والعطاء على نحو هيأ ظهور النظـــرية الماركسية كإيديولوجية

متكاملة يمكن للبناء السياسى الإجتماعى أن يقوم عليها وحدها دون ما حاجة إلى صراع فكرى داخلى، ولذلك فإن أجهزة الإتصال والإعلام هناك تلتزم بصياغة المحصلة المركبة للرأى العام على نحو يتمشى مع هـذا المفهوم ، وإن كان قد بقى لهذه الإيديولوجية أن تناطح غيرها من الإيديولوجيات السائدة فى بلدان أخرى من العالم .

وإذا ما إنتقلنا بنظرتنا إلى الأنساق السياسية السائدة فى العالمين الثالث والرابع نجد أن معظم هذه الأنساق قد تقوم على شعارات فارغة المضمون ، وتستمد بقائها من خلال الإستحواذ على السلطة العسكرية كما هى الحال — على سبيل المثال — فى جمهوريات أمريكا الجنوبية وبلدان أخرى لا تكاد تخرج من إنقلاب حتى تدخل فى آخر، وسند مثل هذه النظم فى البقاء هو الممارسة المطلقة للقوة كما أسلفنا ، أو التبعية للأنظمة الإمبريالية . ذلك فضلا عن الظاهرة الفريدة التى تتجلى فى بعض دول العالم الرابع التى تضيق فيها دائرة الإغتراب إلى أدنى حد ممكن برغم غيبة كل الأشكال التى يتعارف عليها عادة فى الأنساق السياسية اللهم على سبيل الإدعاء والتى لا تتعرض تبعاً لذلك لإضطرابات سياسية تؤدى إلى تغيير أو قلب النظام . وذلك مرجعه إلى الثراء العريض الذى أتيح لهـذه المجتمعات على حين غرة ، وترتب عليه رخاء يكاد يعم كل الناس ، فضـلا عن الإفلاس الفكرى السائد وما يرتبط به من إسترخاء عقلى .

ويستطيع الباحث السياسى أن يلمح أعراض عدم إستجابة الرأى العام لما تطرحه أجهزة بعض هذه الدول نظراً لإستئثار فئة أو طبقة معينة بكل عوائد ما أتيح لهذه البلدان من ثروات ويتجلى ذلك فى الإضطرابات التى نسمع عنها فى الآونة الحاضرة فى إيران(١).

---

(١) تكتب هذه السطور خلال شهر أكتوبر ١٩٧٨ .

ونعود بالسياق إلى ظاهرة الأحزاب — طالما أننا نعنى فى هذا الجزء بالنواحى السياسية ، إذ أن الولاء الحزبى فى المجتمع على تعدد تنظيماته يجسد صورة الإرتباط الفعال للأفراد والجماعات على نحو يمكن من إتخاذ القرار الحاسم فى نهاية الأمر. وبالتالى فإن هؤلاء الأفراد وهاتيك الجماعات تجد نفسها وتتوحد فى الأحزاب . وهذا الولاء الحزبى لا يتأتى إلا من خلال الإلتفاف حول شعارات تتبنى مصالح هؤلاء الأفراد والجماعات الذين لا يستشعرون ذلك على نحو يضمن ولاءهم إلا من خلال عمليات فعالة لصياغة الرأى وتشكيله .

ويستنتج من هذا كله أنه على الباحث السياسى أن يركز إنتباهه على ولاء الفرد للجماعة أو الحزب إذا شاء أن يستكنه مفهوم الرأى العام فى جانبه السياسى المؤثر على مجريات الأمور . إذ أن الولاء فى التحليل النهائى هو الذى يحدد الإتجاهات العامة التى يترتب عليها تبنى رأى بعينه أو سياسة بعينها أو إختيار الناس للزعامة التى يعهدون إليها بإدارة شئونهم .

ويقوم إختيار الزعامة أو إختيار الناس للزعيم فى الأساس على عمليات صياغة وتوجيه للرأى العام تضيق بمقتضاها دائرة الإختيار وتنحصر فى نطاق أشخاص تتمثل فيهم من خلال الخرافة أو الواقع القدرة على تهيئة العوامل والظروف التى تكفل تحقيق مصالح الحد الأعلى من الأفراد والجماعات التى صيغ فيها الرأى العام على نحو يكفل إقناعهم بذلك .

الرأى العام فى عملية الانتخاب

ومن الواضح بالطبع أننا لا نعنى بالزعامة القادة على المستوى القومى وحسب وإنما يندرج تحت مفهوم القيادة كل أولئك الذين يلعبون دوراً قيادياً فى تسيير أمور مختلف الجماعات الداخلة فى المجتمع .

ولا بد أن تسترعى إنتباهنا هنا ظاهرة تواضع الناس فى مختلف المجتمعات على أن وجودها يعتبر مؤشراً يدل على أن للديمقراطية مكاناً فى المجتمع ، إذ أن القوة فى ظهورها وخفائها تميل إلى أن تتوشح بغلالات أردية تخفى وراءها ما تنطوى عليه من قدرة على تحقيق الاذعان على نحو يظهر العبد وكأنه إختار لنفسه بنفسه أن يرزح تحت نير عبودية أو أخرى . ونعنى بهذه الظاهرة « عملية الإنتخاب »[1] التى نرى أن المجتمعات التى تدعى أنها ليبرالية وتلك التى يدعى الليبراليون أنها شمولية تتمسك جميعها بعملية الإنتخاب على أنها سمة من سمات الديمقراطية التى يحـــاول الإنسان أن يدعيها لنفسه منذ عاش فى دولة المدينة city - state الإغريقية[2] وحتى إنتهى إلى مجتمعات القرن العشرين على إختلاف أوصافها . ومرجع عنايتنا بالوقوف إلى حين عند هذه الظاهرة — عملية الإنتخاب — هو أن المحاولة الظاهرة لصياغة الرأى العام ، على مختلف المستويات تتجلى فيها على نحو كبير سواء أكانت هـذه العملية الإنتخـابية تتم لإختيار أعضاء الكونجرس الأمريكى[3] . أو مجالس السوفييت أو مجالس

---

(١) D.E.G. Plowman, 'Public opinion and the polls', B.J.S. Vol. XIII, Dec. 1962, P.P. 331-345; Paul A. Palmer, The concept of public opinion in Political theory, London, 1936; D. Riesman and N. Glazer ; 'The meaning of opinion', Public opinion Quarterly, 1948 – 9, 12, P.P. 633-48.

(٢) أنظر : لطفى عبد الوهاب يحيى ، الديمقراطية الأثينية ـ الطبعة الأولى ، مركز التوزيع الجامعى بالاسكندرية ، ١٩٦٦ ، الفصول ١ ـ ٣ .

(٣) من الظواهر الطريفة وذات الدلالة أن أحزاب ما قبل الثورة فى مصر كانت تعمد عندما تكون فى السلطة إلى إعادة تغيير الحدود الادارية للدوائر الانتخابية على النحو =

العموم البريطانى أو أى مجلس نيابى أياً كان موقعه فى هذا العالم المدعى .

والدلالة الحقيقية لذلك كله هى أن جموع الناس تسير من خلال عمليات الإتصال والإعلام التى تصوغ الرأى العام إلى إتخاذ مواقف تحقق فى التحليل النهائى مصالح الطبقات الضابطة المسيطرة وإن كانت هذه الأخيرة إذا أتيح لها قدر من الإستنارة — تعمل على رعاية مصالح الناس فى الحدود التى تحفظ لها أمنها وإستقرارها .

الرأى العام والكارزما

إن تاريخ الإنسان ، قديمة وحديثة — وخاصة فى أشد نقاط التحول أثراً أو خطراً — أعطانا أمثلة لأشخاص تتجسد فيهم القدرة على إجتذاب جموع الناس وإستثارة الإستجابة التلقائية لديهم لما يطرحه هؤلاء القادة من معتقدات وما يفرضونه من سياسات .

ووقف الباحثون ملياً أمام هذه الظاهرة التى أثرت على مسار الحضارات سلباً وإيجاباً محاولين الكشف عن حقيقة العناصر الداخلية فيها ويبدو أنه بعد أن إستنفدوا المناهج التى ترتبط بصرامة التحليل ، إن كان للتحليل فى كل حال صرامة ، جنحوا إلى ضروب من التعليل الميتافيزيقى ورأوا أن لهؤلاء القادة قدرة فريدة على إستقطاب عواطف الجماهير ومشاعرهم ، وأن هذه القدرة هبة سماوية ، أطلق عليها الباحثون الغربيون لفظة كارزما Charisma ويعنون بها الصفات

= الذى يكفل شموله لأكبر عدد من أنصار مرشحيها ، ويحق للحزب صاحب الاغلبية فى الولايات المتحدة الأمريكية أن يعيد تخطيط الدوائر بنفس الطريقة . وهذه العملية إن هى إلا محاولة لحصر رأى عام معين فى نطاق معين بقصد تهيئة احدى الركائز الهامة للبقاء فى السلطة .

غير العادية التى يتميز بها القائد المجدد أو الثورى ، والتى تقوم على إعتقاد بأنه له قوى دينية أو سحرية على سبيل المثال . ويمكن أن ينسحب معنى هذا المصطلح إلى الرموز Symbols أو النظم institutions التى ترتبط بهذه القيادة(١). ومصطلح الكارزما ، يشتق من الكلمة اليونانية التى تعنى « هبة العناية الإلهية » وتعريف الكارزما على النحو السابق يظهر فى الحقيقة أنها تقوم فى الأساس على حسن صياغة الرأى العام على نحو يكفل نجاح العملية الإتصالية بين القائد وما يمثله وبين جموع الناس . ويتضح ذلك من أن هناك إرتباطاً بين قدرة الكارزمية على البقاء وبين إستطاعتها أن تحقق الآمال التى ألهمتها الجماهير ، ولا تستطيع الكارزمية فى حد ذاتها أن تفعل ذلك دون الإستعانة بقوى المجتمع ، ولكنها تهيء أكثر الفرص مواتاة وقدرة على توجيه الرأى العام فى الإتجاه المطلوب ، وهذا فى حد ذاته قد يكفل لها النجاح فى إنجاز ما تستهدفه إذا إستطاعت أن تحسب هذه القوى حساباً دقيقاً وتحسن إستخدامها .

ويلاحظ أنه بعد أن تتهيأ للقائد الكارزمى فرصـــة الظهور على سطح الأحداث والإمساك بمقاليد الأمور ، يستطيع هذا القائد أن يخاطب قلوب وعقول الجماهير التى أصبحت متعلقة به وبما يمثله مباشرة دون الحاجة إلى العمليات التلفيقية والتوفيقية المركبة التى تقوم عليها صناعة الرأى ، إذ أنه لا يحتاج لأكثر من أدوات أو سائل تسهل عليه عملية الإتصال بينه وبين الجموع التى أصبح فى مقدوره أن يحى آمالها ويداعب أحلامها .

والتاريخ فى عصره الحديث يعطينا هتلر ونكروما وجمال عبد الناصر وماوتسى تونج وفيدل كاسترو وتيتو كأمثلة للقيادة الكارزمية .

---

(١) G. K. Roberts, A Dictionary of Poliical analysis, London, Longman, 1971, P. 28

ومن الآثار البالغة السلبية للكارزمية — أو للرأى العـــام إذا إستطردنا فى التحليل — أنها تجمع القوى فى محصلة سلطة يمارسها قائد واحد بحيث يصبح نجاحه وفشله متوقفين على قدراته ، ويجنى المجتمع بأسره الثمرة فى نهاية الأمر أو يدفع ثمن ولائه .

* * *

وكلامنا عن الرأى العام ودوره فى الجانب السياسى لا بد وأن يفضى بنا إلى شتى الجوانب الأخرى التى يقوم عليها النسق الإجتماعى . فإننا نعرف أن القوة السياسية — كما أسلفنا فى الفصل الثانى — محصلة لعدة قوى هى القوة الدينية والقوة الإقتصادية والقوة العسكرية والقوة العلميـة . ونشير هنا إلى أن هذه القوى جميعاً ترتبط إرتباطاً وثيقاً بالرأى العام أى بتراكيب عمليات الإتصال .

فالقوة الدينية — على سبيل المثال — تنبنى فى الأساس على نشر معتقد أو معتقدات بعينها تقر فى نفوس الناس مستمدة سلطانها من مخول ميتافيزيقى أو عقلى، وتؤثر فى مواقفهم إزاء بعضهم البعض كأفراد وتنظيمات ونظم وإزاء ما يسمى بحقائق الأشياء تأثيراً ضارب الجذور ، وبالغ الأثر فى التاريخ بأسره ولم يقتصر أثر الرأى العام فى الجانب الدينى على تشكيل معتقدات الناس على نحو معين فحسب ولـكن كما هى الحال فى الجوانب الأخرى للرأى العام كان لهذا الرأى أثر فى تشكيل المعتقد الدينى أو تطوره . فإذا ما رجعنا إلى القرن الرابع الميلادى والمؤتمر الدينى الذى عقد فى « نيقيا » عام (٣٢٥ م) والذى تحددت فيه السمات الأساسية للعقيدة « الـكاثوليكية » ، نلاحظ أنه كانت هناك عدة معتقدات فيما يتعلق بالطبيعة الإلهية والتثليث ، وكان الآريوسيون[1] : قد صالوا وجالوا

---

(١) تقول دائرة المعارف البريطانية إن الآريوسية Arianism هرطقة مسيحية ، كان آريوس Arius شيخ الـكنيسة السكندرى أول من طرحها فى أوائل القرن الرابع الميلادى . وهى تؤكد أن المسيح ليس فى الحقيقة إلها ولـكنه مخلوق . (أنظر الملحق الأول فى الملاحق الانجليزية) .

وطرحوا أفكاراً لا توافق المعتقـــد الـكاثوليـكى ، وناقش مجمع نيقيا ، كل الأفـكار التى كانت مطروحة وإنتهى إلى مقررات معينة أصبحت فيما بعد أساس العقيدة الـكاثوليكية .

وتتضح صلة ذلك بالرأى العام مما ننقله فيما يلى بنصه عن العلامة الإنجليزى الشهير « Edward Gibbon » : « ولو أتيح لأساقفة مجمع نيقيا أن يتبعـوا مقتضيات ضمائرهم غيرالمنحازة ، لما كان بوسع آريوس ورفاقه ، أن يمنوا أنفسهم بنيل أغلبية أصوات لصالح إفتراض يتضاد مباشرة مع رأيين من أكثر آراء العالم الـكاثوليكى شعبية وسرعان ما أدرك الآريوسيون خطورة موقفهم وإتخذوا بوحى من العقل ، تلك الفضائل المعتدلة التى يندر أن يمارسها أو حتى يتمدحها فى حمأة الخلافات الدينية وغير الدينية غير الجانب الأضعف . فأوصوا بممارسة المحبة والإعتدال المسيحين وإحتجوا بأن موضوع الجدل ذو طبيعة مستغلقة وإستنكروا أية ألفاظ أو تعاريف لا يمكن العثور عليها فى الـكتاب المقدس وعرضوا أن يسترضوا معارضيهم بتقديم تنازلات سخية جداً دون تخل عن صحة مبادئهم الخاصة وتلقى الجانب المنتصر كل مقترحاتهم - أى مقترحات الآريوسيون - بإرتياب متعال ، وجدوا فى البحث عن نقطة خلاف تستعصى على الإتفاق ويؤدى رفضها إلى توريط الآريوسيون فى إثم الهرطقة وما يترتب عليه(1) .

وبصرف النظر عن الخلافات الثيولوجية التى لا تعنينا فى هذا المقام فإنه ما كان للآريوسيين وهم يعتقدون أنهم يمثلون وجهـة نظر تتفق مع الـكتاب المقدس

(1) Edward Gibbon, Declineand fall of the Roman Empire, Harmandsworth, pelican Books, 1963, p. 313, See Appendix II.

أن يقترحوا التراجع عما يعتقدون . ويستبين من النص المستشهد به أثر الرأى العام فى ذلك .

وإن كان العرض السابق يظهر علاقة المعتقد بالرأى العام تأثيرا فيه وتأثرا به فإن للمسألة جانبا آخر يؤكد أهمية صياغة الرأى العام فى معتقد شامل على نحو يكفل لأصحاب السلطان تحقيق ما يستهدفونه من إستقرار النظام القائم[١]. ولذلك فإننا نرى أن الباحثين ينفقون الكثير من الجهد فى تناولهم لدوافع تبنى الإمبراطور قسطنطين للمعتقد المسيحى كدين للإمبراطورية الرومانية وعلى الأسباب السياسية التى حدت بها إلى ذلك . ولا يفوتنا أن نشير إلى أن العلاقة بين العقيدة والرأى العام لا يقف أثرها عند الحدود الإقليمية للنسق السياسى المعين ، إذ أن العقيدة ـ سواء قامت على أساس من الوحى أو على أساس من الوضع ـ تجاوز الدعوة إليها حدود المجتمعات المعينة ، فإن الإيديولوجيات تحاول دائماً أن تخاطب الإنسان بعامه .

الرأى العام والقوة العلمية

تستند إدارة الدولة بمعناها الحديث إلى عديد من المؤسسات ومن بينها مؤسسة قد تتوزع عناصرها فى مؤسسات مختلفة . وتتمثل فى هؤلاء الأفراد الذين لهم من الخبرات العلمية ما يجعل لآرائهم قيمة فى تسيير أمور النسق السياسى القائم . وهؤلاء هم الذين نعنيهم فى حديثنا عن القوة العلمية الداخلة فى تركيب القوة السياسية وسواء تفرق هؤلاء الخبراء فى أماكن مختلفة فى النسق الإجتماعى أو إجتمعوا تحت صفة أكاديمية أو غيرها فإنهم فى ظل إيديولوجية

---

(١) أنظر : الملحق الثالث فى الملاحق الانجليزية .

معينة يشكلون أداة هامة من أدوات توجيه الرأى العام . ولنوضح ذلك نفترض مثلا أن الإيديولوجية التى يراد تطبيقها فى النسق الإجتماعى تستلهم وحيها من النظرية الإشتراكية ، فإنه ينبغى أن يكون هؤلاء الخبراء جميعا من المؤمنين ـ حقيقة أو إدعاء ـ بتلك النظرية . إذ أنهم يشكلون فى هذه الحالة المصدر الذى تنبثق منه الأفكار التى ستطرح على الناس وذلك يعنى أن لهؤلاء الخبراء دورا هاما فى صياغة الرأى العام وتوجيهه . وذلك يعنى أيضا أن دور هؤلاء الخبراء لا يقتصر على مناجزة خصوم العقيدة الإشتراكية فى داخل مجتمعاتهم وحسب ، وإنما يتعدى الحدود الإقليمية للنسق السياسى ليتصدى لأعداء العقيدة فى العالم بأسره .

ولقد ذكرنا ذلك حتى يمكننا الإنتقال إلى الدور الذى تلعبه فروع العلم المختلفة فى صياغة الرأى العام العالمى والمحلى إزاء الإيديولوجيات ودورها التاريخى. وإذا شئنا أن نمثل لذلك فإننا نقول للدارس أن عليه أن يلقى نظرة على تاريخ العالم أو على تاريخ أمة بعينها من خلال الكتابات التاريخية التى قام بها كتاب ينتمون إلى أيديولوجيات مختلفة فانك واجد ولا شك أن هذا التاريخ ـ سواء كان تاريخ العالم أو تاريخ أمة معينة ـ يصطبغ بطابع الفكر الذى ينتمى إليه كاتب التاريخ . ويتجلى ذلك فى أوضح صورة إذا ما قرأنا التواريخ التى يصدرها العالم الغربى والتواريخ التى يصدرها الشق الماركسى من العالم .

وليس ذلك فحسب فإن نعرات التراث القومية أحدثت أثرها فى فوارق نلحظها فى التواريخ التى يكتبها أناس ينتمون إلى حضارة واحدة كما هى الحال فيما نقرأه من تواريخ كتبها الفرنسيون والإنجليز والامريكيون .

وإذا شئنا أن نضرب مثلا يعبر عن هذه الحقيقة فى واحد من جوانبها ، ويظهر ما يمكن أن يشوب نظرة المؤرخ حتى فى معالجته لأحداث الواقع الذى إنقضى والتى يفترض أنها تخضع لمنطق التحليل والتعليل ، فإننا لا نعود إلى أبعد من السنوات الأولى للحرب العالمية الثانية عندما إستقر الأمر لهتلر فى بولندا بإخضاعها فى أوائل عام ١٩٤٠ ، ثم قفزت قواته بغتة من شرق أوروبا للعمل فى غربها ، ووجهت ضرباتها والعالم لا يكاد يفيق من ذهوله إلى دولتين محايدتين هما الدنمارك والنرويج . وسرعان ما سقطت الدنمارك دون مقاومة تذكر ، وإستبسل النرويجيون دفاعا عن وطنهم بعد أن أفاقوا من وقع هذه المباغتة . وفى تلك الآونة إندفعت القوات البريطانية على عجل لتعين النرويجيين فى صد الهجوم الألمانى ؛ وبدى عندئذ أن نجاح الغزوة الألمانية أمر مشكوك فيه ، ولكن الألمان أثبتوا فى نهاية الأمر أن البريطانيين والنرويجيين لم يكونوا أندادا لهم . وأكرهت القوات البريطانية والنرويجية على الفرار إلى بريطانيا ، وسقطت النرويج فى أيدى الألمان ، وعهد بحكمها إلى نرويجى خائن هو : فيدكون كويزلنج Vidkun Quisling الذى أضاف إسمه إلى قاموس اللغة الانجليزية كلمة Quisling التى تعنى «خائن على إستعداد لأن يحكم بلاده لصالح غاز أجنبى» (أنظر Oxford). وأتاح غزو الدنمارك والنرويج للألمان الإستيلاء على سلسلة القواعد البحرية الهامة فى بحر الشمال التى تقع فى مواجهة الساحل البريطانى بما يقوى مركز هتلر بشكل خطير فى قتاله مع بريطانيا . ثم عاود هتلر توجيه ضرباته ، وغزت القوات الألمانية فجأة دولتين محايدتين أخريتين ، وهما بلجيكا وهولندا ، وسرعان ما قضت على قواتها . ودفع بقوات بريطانية وفرنسية لتعين هاتين الحليفتين الجديدتين ، ولكنها عجزت عن إيقاف الضربات القاصمة والسريعة التى وجهتها مجموعات الدبابات السريعة — فرق البانزر The Panzer dvisions — التى كانت

تؤازرها أسراب كبيرة من الطائرات القاذفة . وتفتتت القوات المتحالفة تحت وطأة هذه الضربات المروعة . »

ويصف المؤرخ الأمريكي « سوثورث » ما حدث بعد ذلك قائلا : « إن ليوبولد الثالث ملك بلجيكا ، وقد عجز عن أن يهضم أن تذبح قواته ، أمر كل الجنود البلجيكيين أن يلقوا بأسلحتهم » .

... King Leopdd III of Belgium, unable to stomach the slaughter of his troops, ordered all Belgian soldiers to throw down their arms, (١)

وهذه العبارة على بساطتها ترتب خطوة « ليوبولد » الثالث كنتيجة حتمية لما سبقها من أحداث . ولكننا نجد أن المؤرخ البريطاني «هربرت جورج ويلز» يرى رأيا آخر في ذلك ، إذ يقول :

« وخطر للملك ليوبولد ، الذي كان قد لجأ إلى فرنسا وبريطانيا ليعيناه عندما غزى بلده ، أن الوقت كان مواتيا عندئذ لعمل من أعمال الجبن الفائق والخيانة » .

«It occurred to King Leopold, who had appealed to France and Britain for assistance when his country was invaded, that the time was now opportune for an act of sapreme cowardice and treachery».(٢)

---

(١) J. V. Southworth, The Story of the World, p. 435.

(٢) H. G. Wells, A short History of the world, Harmondsworth, Pelican Books, 1956, p. 339.

هذا ما يقوله ويلز ، بالرغم من أنه ينعى على الفرنسيين فى الصفحة نفسها من تاريخه أنهم لم يمدوا خط ماجينو إلى ماوراء الحدود البلجيكية ، وأن خطة الحلفاء للتحرك العسكرى من ناحية اليسار المكشوفة كان يعتورها نقص شديد .

« The French had never prolonged the Maginot Line beyond the Belgian frontier, and the plan of the Allies for a war movement on the exposed left was very incomplete».

ونحن نقدر تفهم « سوثورث » لموقف الملك ليوبولد الثالث ، ونقدر فى الوقت نفسه دوافع « ويلز » فى موقفه منه ، والذى يهم هو الحقيقة التى نخرج بها من تفهم هذا وموقف ذاك ، وهى أنه إذا كان الأمر كذلك فيما يتعلق بحدث - أيا كان مبلغه من الجسامة - له مقدماته التى لا ينبغى لمفكر أن يتجاهلها إذا كان يتوخى الموضوعية العلمية ، فماذا ستكون الحال إذا كان الأمر يرتبط بالمعتقدات والإيديولوجيات وما بينها من سياسات ؟

وهذا المثال كما قلنا يظهر جانباً واحداً من جوانب المسألة التى تتعقد أيما تعقد إذا حاولنا أن نعدد أمثلتها ومجالاتها على إمتداد تاريخ الإنسان فى عجزه القديم عن الحيدة الموضوعية الذى تضيف إليه الإيديولوجيات المعاصرة والإتصال الحديث فى كل يوم جدة وحدة .

ومن هنا نلاحظ أن فرعاً علمياً كالتاريخ وفلسفته أصبح لا يعنى فقط بتسجيل الواقع التاريخى كأحداث، وإنما يعنى أيضاً بالكيفية التى يكتب بها هذا التاريخ. وأن فرعاً علمياً آخر كعلم الإجتماع أصبح يدرس ويقارن الظواهر الإجتماعية من خلال منظور الإيديولوجية التى ينتمى إليها الباحث ، والفارق بين علم الإجتماع الماركسى ومدارس علم الإجتماع الغربى أوضح من أن نتناوله هنا بتفصيل.

وهذه الكيفية التى يكتب بها التاريخ أو تعالج بها مسائل علم الإجتماع هى التى تنبىء عن الخلفية الإيديولوجية للباحث .

الرأى العام فى منظور التاريخ

إن مصطلح « الرأى العام » الذى لم يتداول إلا فى العصر الحديث قد يضفى على مفهوم الرأى العام غلالة من الحداثة توحى بأنه لم يرتبط بحياة الناس إلا فى حقبها المتأخرة على حين أن الظاهرة التى يطلق عليها هذا المصطلح قديمة قدم قدرة الإنسان على إستخدام كلمة تعكس رأيه .

ولقد حاولنا حتى الآن أن نشير إلى بعض العناصر العامة التى يمكن أن يستخرج منها مفهوم للرأى العام ، ولم نجد هذه العناصر فى النطاقات المعاصرة فحسب وإنما عدنا إلى الوراء فى خطى محسوبة ووقفنا إلى حين عند الفترة التى بدأ فيها معتقد شامل ، يطرح نفسه عبر كيان سياسى واسع يضم عناصر قومية مختلفة وذلك قبل ظهور قوميات العصر الحديث على النحو الذى تجلى ذلك فيه بطرح المسيحية نفسها كعقيدة للبشرية بأسرها ، فإبتدأنا كضرورة منهاجية بالقرن الرابع الميلادى وأغضينا عن اليهودية مثلا رغم سبقها التاريخى فى الوجود لكونها إيديولوجية مغلقة تطرح نفسها على قوم معينين يرون أنهم شعب الله المختار .

وظهرت فى القرون التى سبقت المسيحية دعوات وفلسفات أخرى كثيرة فى الإتجاه الدينى ترتبط بمحاولة الإنسان إيجاد إله له والوصول إلى خالق الكون وهذه المحاولات قديمة قدم الإنسان منذ أن كان إنسانا بلا تاريخ مكتوب وبعد أن أصبح قادرا على تدوين تاريخه على ألواح أو جدران أو أوراق بردى . وطالما أنه كانت هناك آراء تحاول أن تتعدى نطاق العقل الذى إنبثقت منه إلى عقول أخرى ، ومع تعقد صور إجتماع الناس فإنه كانت هناك ولاشك محاولات

لإحداث تغيير فى رأى الآخرين يترتب عليها إعادة توجيه للمواقف التى لم تنحصر فى النطاق الدينى وإنما تعدته بالضرورة إلى السلوك الإجتماعى . وقراء التاريخ يقفون على هذه المحاولات وما يترتب عليها من آثار فى مسيرة البشرية فى تاريخ مصر القديمة وبابل وآشرر وما تلاها من حضاراته .

فنرى مثلا — إذا ما رجعنا إلى العهد القديم من الكتاب المقدس أن أنبياء بنى إسرائيل كانوا يحاولون حينا أن يسوغوا ما يصنعه الحكام لدى جمهور الناس، ونراهم فى حين آخر يحاولون التأثير فى هذا الجمهور على نحو يؤثر فى سلوك الحاكمين ، ثم إذا ما انتقلنا بالنظرة إلى اليونان القديمة نجد أن تعريف الأمور فيها كان يقوم فى الأساس على ما يراه الناس ، أى على قدرة هؤلاء الذين كان بوسعهم أن يؤثروا فى هذه الآراء أو يغيروها ، ومن هنا تبرز الأهمية الخاصة للدور الذى كانت تلعبه الخطابة فى ذلك العصر .

وإذا ما تجاوزنا النطاق الضيق نسبيا المدينة اليونانية التى كانت فصاحة الفصحاء ومنطقهم يضفيان على وجه الحياة فيها قسماته ، إلى الإمبراطورية الرومانية التى كانت كيانا سياسيا Body politic معقدا بالقياس إلى دولة المدينة اليونانية ، نجد أن «الكلمة والخبر» ، كان لهم أبلغ الأثر فى تشكيل الرأى العام. وكانت الكلمة تنتقل من خلال الإتصال الشخصى من ناحية فضلا عن أن الإمبراطورية الرومانية إستطاعت أن تبنى لنفسها شبكة من الطرق تربط بين أطرافها المتنائية وأقامت على هذه الطرق مراكز لا يفصل بين الواحد والآخر منها ، أكثر من مائة ميل رومانى ، وكل منها مزود بالجياد وما إلى ذلك بحيث يمكن للكلمة سواء أكانت مرسوما إمبراطوريا أو أمرا عسكريا أو غير ذلك أن تنتقل بسرعة كبيرة من أقصى الإمبراطورية إلى أقصاها .

وفى مرور حضارة الإنسان بما أصطلح المؤرخون على تسميته بالقـرون الوسطى كان للحياة على وجه العموم طابع تلعب فيه مكانة الفـرد دورا بالـغ الأهمية ، وذلك بالنظر إلى الترتيب الهرمى الذى كان سائدا على المستويين الدينى والمدنى فى إنفصالهما أو تداخلهما. فإذا ما نظرنا إلى المجتمع الأوربى فى تلك العصور وجدنا أن هذه الهرمية(١) ، تزدوج على نحو أدى إلى صراع بـين البابوات من ناحية وبين الأباطرة والأسر الحاكمة من ناحية أخرى . وكان على كل هذه الأطراف أن تحاول التأثير فى الرأى العام كل بما أتيح له من وسائل تؤازرها السماء أو وسائل تؤازرها الأرض. وكانت الدعاية الدينية المليئة بالسياسة تتخذ أشكال المواعظ . وكان رجال الدين والأمراء والنبلاء لا يعدمون شاعرا مغنيا يتغنى بمعجزات القديسين وأمجاد الحاكمين ، وكان هذا الشاعر المغنى الجوال يسمى بآل تروبادور Troubadour، وهى كلمة من التراث الضخم الذى ورثته الحضارة العربية لحضارة الغرب ، إذ أنها مشتقة من الكلمتين العربيتـين « دور طرب » اللتين قلبتا فأصبحتا « طرب دور » .

ولما آذنت القرون الوسطى بإنقضاء وبدأت أسوار مدنها تنهار كسمة مبكرة لظهور الدولة القومية كان العامة قد أتيح لهم قدراً أكبر من المعرفة والإلمام بالقراءة والكتابة مما أتاح للكلمة المـكتوبة ـ ولو أن ذلك فى نطاق لا يقاس بأى حال بما ساد فى القرون التى تلت ذلك ـ تلعب دورها فى التأثير فى آراء الجموع والمساعدة فى فرض صبغ إجتماعية أو سياسية أو دينية بعينها . وتعمق أثر الكلمة بإختراع

---

(١) أنظر : اسماعيل على سعد ، نظرية القوة ، الفصل الرابع .

الطباعة ، وإزداد هذا الأثر خطـــورة عندما بدأ « مارتن لوثر »(٢) فى ثورته البروتستنتية « يخاطب العامة بلغتهم بعد أن كانت الصفوة Elite من أصحاب الإتجاه الإنسانى Humanists تستخدم اللغة اللاتينية فى كتاباتها . وهذا يعنى أن أفراداً بعينهم بدأوا يجتمعون تحت لواء أفكار أو مفاهيم بحيث يشكلون جماعات ذات آراء متسقة ومؤثرة تناجز بعضها البعض فى كل ما يتعلق بحياة الإنسان وفكره من أمور .

ونلاحظ بعد ذلك أن كلا من السلطة الدينية والسلطة المدنية حاولتا وتحاولان – بالرغم من تشابكهما حينا وإنفصالهما حينا آخر – أن تخضعا كل مسألة ذات صلة بالتأثير فى الرأى العام لضرب من ضروب الرقابة . ونمثل لذلك من الناحية التاريخية بأول مثلين لهتين السلطتين فى إتخاذ الرقابة التى فرضتاها شكلا ظاهراً، ففى عام ١٥٥٩ أصدر البابا بولس الرابع أول قائمة Index Librorum Prohibitorum تحظر الكنيسة الكاثوليكية بمقتضاها تداول كتب معينة لا ينبغى للمؤمن فى نظرها أن يقرأها ، وتتمثل فى هذا بالطبع محاولة السلطة الدينية فرض رقابة علنية على وسيلة من أهم وسائل نشر الفكر والتأثير فى الرأى فى ذلك العهد . كما أننا نجد أن شارل التاسع أصدر فى عام ١٥٦٣ مرسوما يقضى بأنه لا ينبغى أن يطبع أى شيء دون الحصول سلفا على موافقة خاصة من الملك. وفى هذا تتجلى أول محاولة تقوم بها السلطة المدنية لفرض رقابة علنية على الكلمة المطبوعة .

ويلاحظ من ناحية أخرى أن هذه الكلمة المطبوعة كان تداولها فى تلك الآونة

---

(٢) أنظـــر :

James Atkinson, Martin Luther and the Brith of Protestantism, Harmandsworth, Pelican Books, 1968.

مقتصرا على دوائر ضيقة نسبياً من الصفوات التى كان الأمر بيدها ، وبدأت بعد ذلك بواكير ما إنتهى بنا إلى الصحافة ومراكز الإخبار كما نعرفها فى الوقت الحالى والتى تطلبت ـ كما تتطلب الآن ـ أشكالا أو أخرى من الرقابة تتناسب مع ما تتناوله من موضوعات لها مساس بشتى جوانب الحياة وبما يدور فيها من صراع إجتماعى سياسى وخاصة تلك الأنماط من الصراع التى تدور بين الجماعات المؤثرة فى مسيرة المجتمع أو المجتمعات وحروب العقائد والسلاح التى تنشب بينها . وقد تعقدت هذه الرقابة التى بدأت بقرار بابوى وبمرسوم ملكى ، على مر الأيام وبتعقد أمور الحكم والسياسة فى عالمنا المعاصر بحيث أصبح الظاهر منها والخفى يمارس بأكثر الوسائل علمية وتعقيدا .

وإذا عدنا بالنظرة إلى الوراء لنتأمل الفترة التى آذنت بإنقضاء العصور الوسيطة نجد أن الأمراء والنبلاء كانوا يعتمدون فى حروبهم أول الأمر على أتباع Vassals ولكنهم إضطروا بعد ذلك إلى أن يستأجروا جنوداً ليقوموا بالقتال ، وتطلب ذلك مبالغاً كبيرة من الأموال التى لم يكن فى طوقهم تدبيرها عند نشوب الحرب مما جعلهم يقترضون هذه الأموال ، وكان لا بد لمقرض المال من أن يحاول تبين مدى قدرة المقترضين على السداد الأمر الذى أدى إلى العمل على توفير المعلومات المتعلقة بالمقترض لدى الأوساط المقرضة ، فنجد إذن أن هناك رأياً معيناً بخصوص أفراد معينين يجمع عليه مقرضوا المال وكان هذا الرأى ولا شك يؤثر فى قدرة الحكام على القيام بالحرب أو مواصلتها .

وأثر هذا الرأى الذى تعلق عند نهاية القرون الوسطى بأفراد يتولون أمور أنفسهم أو جماعاتهم ، نراه بعد أن تعقد وتعقدت أحوال الدنيا والإيديولوجيات من حوله بالغ الأثر فيما يتعلق بأمور الدول وخاصة دول العالم الثالث التى أصبحت

القروض والتسهيلات التى تمنح لها والتى تستخدم فى أغراض التنمية والتسليح وما إلى ذلك ترتبط إرتباطاً وثيقاً بالآراء التى تشكل عنها فى الأوساط المهيمنة على عالم السياسة والمال(١) فى عالمنا المعاصر من ناحية ومن إنتمائها الإيديولوجى من ناحية أخرى، سواء كان المقرض أو مانح التسهيلات مؤسسة يملكها أفراد أومنظمة من المنظمات كالبنوك وصندوق النقد الدولى والسوق الأوربية المشتركة وليست أخبار اللجان التى يبعث بها البنك الدولى للإنشاء والتعمير لبحث واقع إقتصاد دولة معينة بمنأى عن مسامعنا .

ودون أن نستطرد فى ذكر التفاصيل التاريخية التى أعقبت العصر الوسيط ينبغى لنا أن نشير إلى أن الثورة الفرنسية التى قامت بها جموع الشعب تعتبر فيصلا بين رأى عام يحد فى نطاق الطبقة البرجوازية وبين الرأى العام الذى يسود بين جموع الشعب الغفيرة ، وإن كان هذا لاينفى أن الرأى العام قد يرتبط فى الأساس بمصالح الطبقة أو الجماعة أيا كانت تسميتها .

ومن محاولات تعريف الرأى العام المبكرة ، المعبرة ، التى أوردتها دائرة المعارف البريطانية تلك التى قام بها الشاعر الألمانى Christoph Wieland إثر قيام الثورة الفرنسية وما تلاها من أحداث جسام فى أوربا :

«إننى أفهم الرأى العام على أنه ذلك الرأى الذى يترسخ بالتدريج بين شعب بأسره وخاصة بين أولئك الذين يكون لهم أكبر تأثير إذا ما عملوا معاً كجماعة . والذى يكون على هذا النحو صاحب اليد العليا بحيث نلقاه فى كل مكان. فهو رأى يستحوذ

---

(١) أنظر : Fred Hersoh, Money International, Harmondsworth, Pelican Books, 1964.

فى خفاء على معظم المعقول ، ويمكن التعرف عليه حتى فى المواقف التى لا يجرؤ فيها على التعبير عن نفسه صراحة ، من خلال نبرات الهمس المكتوم الذى تعلو نبراته شيئاً فشيئاً. ثم لا يتطلب حينئذ سوى منفذاً صغيراً يتيح له متنفساً لينطلق فى قوة . ويستطيع أن يغير كل الأمم فى وقت قصير ، ويعيد تشكيل أجزاء العالم بأسرها » .(١)

وتضيف دائرة المعارف البريطانية أن الفيلسوف الألمانى Christian Garve الذى كان معاصراً للشاعر Christoph Wieland يركز على الجانب العقلى للرأى العام إذ يقول : « إن الرأى العام كما يفسره أكثر الكتاب الفرنسيون وضوحاً فى تناول الموضوع هو إتفاق الكثيرين من مواطنى دولة ما أو غالبيتهم فيما يتصل بالأحكام التى يصل إليها كل فرد على حدة نتيجة لتدبره أو لمعرفته العملية لمسألة بعينها (٢) .

ثم تضيف الدائرة أن الفيلسوف الإنجليزى Jeremy Bentham وهو أول من تناول مشكلة تعريف الرأى العام بالتفصيل فى اللغة الإنجليزية راعه ما يكتنف هذه المحاولة من صعوبات ، فرأى أن هذا المصطلح ينبغى أن يراعى فى إستخدامه العرف العام ، بمعنى أن محاولته تعريف الرأى العام ترتبط بالمجتمع الذى تجرى فيه هذه المحاولة .

ويحسن أن نقف بعرضنا التاريخى المقارن عند هذا الحد لننتقل بعد ذلك إلى محاولات التعريف الحديثة للرأى العام، وينبغى لنا أن نشير قبل هذا الإنتقال

---

(١) أنظر الملحق الرابع (a) فى الملاحق الانجليزية .

(٢) أنظر الملحق الرابع (b) فى الملاحق الانجليزية .

إلى أنه قد يعن لبعض أصحاب المنهج أن يتساءلوا لماذا تأخرنا بهذا العرض التاريخى المقارن إلى ما بعد الإشارة إلى الرأى العام والأيديولوجية ومحاولة تعريفهما وبيان علاقتهما ببعضهما البعض وماتنطوى عليه هذه العلاقة من عمليات إتصالية على سبيل الإبتداء ، والرد فى بساطة هو أننا توخينا أن نعطى القارىء مؤشرات يستطيع بوساطتها أن يستكنه بعض جوانب ما يسمى بظاهرة الرأى العام أو ما يمكن أن يكون رأيا عاما على نحو أو آخر من خلال هذا العرض التاريخى المقارن . فهذا العرض إذن فى مكانه وإن تأخرنا بموضعه على غير ما هو مألوف .

الفصل الخامس

تعريف الرأى العام

- الرأى العام فى النطاق المحلى
- الرأى العام فى النطاق الدولى
- تعريف الرأى العام

الرأى العام فى النطاق المحلى

إن ظاهرة الرأى العام هى من تلك الظواهر المجتمعية ذات الجوانب المتعددة، وهى على وضوح أثرها فى موقف معين لا تلبث أن تراوغ منهج الباحث الذى يحاول أن يلم بها فى شمول يستجمع كل جوانبها لا فى موقف واحد وحسب ، وإنما فى كل المواقف التى يرى فيها آثار هذه الظاهرة وهى تحرك الأمور أو تفرض عليها مسارا أو آخر .

والإنسان فى محاولته المستمرة للملاحظة والتوصيف والتقسيم والتعريف يحب أن يعرف الأشياء فى قوالب ثابتة لها من الجمع والمنع ما يمكنه من فهم حقائقها على نحو لا تلتبس فيها ببعضها البعض . وواقع الأمر أن ثمة فوارق عديدة بين العلم بمعناه المعملى الذى إستطاع أن يهيىء لنفسه معايير تقف عند الحجوم والأوزان وما إلى ذلك من صفات أو خواص تقاس على نحو يتيح للباحثين فى مجالاته أن يلاحظوا ويقننوا فى يسر نسبى ، وبين ما يسمى بالعلوم الإنسانية التى تتعرض بالدرس فى مجالاتها المختلفة لظواهر تجاوز نطاقاتها وأحوالها وخواصها كل قدرة معملية على القياس ، ويترك الأمر فيها إلى قدرة الباحث على رؤية العلاقات بين الأشياء وإستكناه حقيقتها . وهذه القدرة فضلا عن إختلافها من إنسان إلى إنسان ترتبط أيضا بالمنظور الذى يرى الباحث من خلاله الأمر المعين ويعالجه .

ومن هذا يتبين أن العقل الذى إستطاع أن يبتدع معايير يقيس بها فى المعمل قياسات يمكن أن تدعى لنفسها قدرا من الدقة، لم يستطع فى نطاق العلوم الإنسانية أن يتيح لنفسه مثل هذه المعايير .

وتتجلى هذه الحقيقة أكثر ما تتجلى فيما حاوله ويحاوله الباحثون من تعريف

لظاهرة « الرأى العام » فقد إنقسموا ولا زالوا ينقسمون بعد طول عناء بين منكر لهذه الظاهرة ، ومعترف بها على قصور فى القدرة على تعريفها ومسلم بوجودها متصد لمحاولة تعريفها . والواقع أن هذا الإختلاف البين لا يروعنا فى كثير ، فإذا كانت المادة — Matter — التى إعتقد الباحثون لقرون طويلة أنها ثابته فى عناصرها الأولى على الأقل وحاولوا تعريفها على هذا الأساس قد كشفت فى القرن الأخير عن إمكانية إحداث تغيير فى تركيبها بحيث يستحيل العنصر إلى عنصر آخر ، مما جعل الباحثين يعرفونها تعريفات مختلفة فى أحوال مختلفة ، فما الذى يمنع الباحثين فى مجالات العلوم الإنسانية أن يتصدوا لتعريف ظاهرة معينة بتعاريف مختلفة إذا إختلف المنظور الذى نتناول منه هذه الظاهرة أو إذا إختلف السياق الذى توجد فيه . ونحن فى رأينا هذا لا نتأى عن الأصل فى التعريف الذى يقوم على تقصى الصفات أو الخصائص المشتركة للأشياء مع إستبعاد ما قد يؤدى منها إلى الخلط بين أشياء قد تشترك فى سمات وتختلف من حيث الجوهر . فالعبرة إذن ليست فى أن الظاهرة تختلف بعض سماتها أو بعض آثارها من مجال إلى مجال، وإنما العبرة فى أن هناك خطوطا من العلاقات الجوهرية تربط ما بينها بالرغم من إختلاف المنظور أو السياق .

وترتيباً على ذلك فإننا لا نتفق مع هؤلاء الباحثين الذين ينكرون ظاهرة الرأى العام ولا نقتنع بقصور الذين يعترفون بهذه الظاهرة ويحارون إزاء تعريفها ، ونجد فى كل تعريف وضع حتى الآن لهذه الظاهرة شيئاً منها وإن إختلفت هذه التعريفات، ولاقيمة إذن للإختلافات الموجودة بينها طالما أنها لاتباعد بين الظاهرة وجوهرها . وحسبنا أن نلقى نظرة على الإتجاهات السائدة فى تعريف الرأى العام ، ثم نحاول أن نضع تعريفا أقرب إلى الجمع والمنع بقدر

ما تسمحنا الطاقة . خاصة وأننا نلاحظ مسع ولترليبمان (١) أن الإتجاه السائد ، فى النظم الديمقراطية هو أن الباحثين فى مسألة الرأى العام يجنحون إلى الإلغاز من ناحية، ونلاحظ من ناحية أخرى أن العاملين فى مجالات صناعة الرأى لا يعنيهم أن يقفوا ليعرفوا الرأى العام بنفس ما تعنيهم محاولة التأثير فى ذلك الرأى ، فالعاملون فى مجال العلاقات العامة أو أولئك الذين يحاولون تهيئة رأى عام إنتخابى معين فى الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها على سبيل المثال يصرفون جل همهم إلى التأثير فى الرأى على نحو يهيىء الفرص لخدمة مصالح معينة أو تهيئة رأى عام إنتخابى معين .

ونحن نلاحظ أن الباحثين السياسيين وبعض المؤرخين يجنحون فى دراستهم لظاهرة الرأى العام إلى التركيز على الدور الذى تنعكس آثاره على إدارة الدولة وتخطيط سياستها على نحو جعلهم ينظرون إلى الرأى العام وكأنه لا يختلف عن «الإرادة القومية» ، وبهذا المعنى لا يمكن أن يكون هناك إلا رأيا عاما واحدا إزاء قضية واحدة فى وقت واحد .

وتعريف الرأى العام على أنه الإرادة القومية إزاء موضوع معين فى زمن معين صحيح على الإجمال وإن كان لا يتعرض للكيفية التى صيغ بها هذا الرأى ولا للعوامل البيئية والنظمية والتاريخية التى تشكل خلفية الأفراد والجماعات الداخلة فى تكوين المجتمع الذى يتشكل فيه الرأى العام .

ويلاحظ فى الوقت نفسه أن علماء الإجتماع يميلون إلى النظر إلى الرأى العام

---

(١) أنظــر :

Walter Lippmann, Public Opinion, N. Y. Pelican Books, 1946, P. 191 seq.

على أنه نتاج التفاعل الإجتماعى والإتصال . وهذا يعنى أنه يرتبط بالمواقف المعينة التى يتخذها الأفراد والجماعات إزاء قضية معينة والتى تشكل رأيا عاما أو آراء عامة متعددة إزاء أى قضية أو كل قضايا المجتمع من خلال العمليات الإتصالية المتنوعة والمستمره بين الأفراد والجماعات والتى تتعلق بكل شئون الحيـاة على ما فيها من تفاهة أو ما لها من خطر ، ولا يستطيع أحـد أن ينكر على سبيل المثال أن إتباع نمط معين فى الزى أو تصفيف الشعر يشكل معنى من معانى الرأى العام وما يصدق على ذلك ينصرف إلى أمور كثيرة فى حياة الناس اليومية. وتناول الرأى العام بهذه الـكيفية ومن هذه الجوانب ينأى بهذه الظاهرة نسبيا عما يتعلق بأمور الحـكم ، ونقول نسبيا لأن هذة الجوانب ليست بمنأى تام عن الإقتصاد وعن أمور قد تكون ذات صلة بما هو سياسى ، وإن كان تركيز علماء الإجتماع لا ينصرف فى الغالب إلى شئون الإدارة والحـكم .

وإختلاف الأفراد والجماعات والأذواق يؤدى بالضرورة إلى وجود آراء عامة متعددة كما يستخلص مما أسلفناه ، وهذه الآراء تتفاوت فى الأهمية والخطر ، وقد نستطيع أن نسمى بعضها رأيا عاما مغلقا ، على ما فى العمومية من ظهور وما فى الإنغلاق من خفاء . ونقصد بالرأى العام المغلق مرحلة من مراحل تكوين الرأى يقتصر فيها الأمر على الهمس الذى يدور بين أفراد الأسرة الواحدة أو جماعة من الأصدقاء والذى يشكل رأيا عاما ولكنه محدود الأثر وقد يتأتى له أن يخرج إلى الناس ويتسع نطاقه أو يبقى حيث هو كما هى الحال فى النظم التى قد لا يتاح فيها لمثل هذه الآراء أن تطفو وتؤثر فى النطاق السياسى أو الإيديولوجى .

الرأى العام فى النطاق الدولى

بدأ الإنسان مسيرته فى هذا العالم وحيدا ، أو يوشك أن يكون وحيدا ، ثم دفعت به ضرورات الحياة ومقتضياتها إلى ان يأتلف فى جماعة بدائية تعقدت أحوالها بمضى الوقت من ناحية ، وتحولت الجماعة إلى جماعات متفرقة لم يكن فى وسعها أن تأتلف أو تختلف، إلا فى حدود النطاقات التى تهيء سبيل البقاء الأنسب كما يقول الآخذون بنظرية التطور . ولم تكن هناك وسيلة للإتصال من خلال رموز اللغة التى بدأت بسيطة ومباشرة وترتبط بما هو ملموس والتى قدر لها بعد ذلك أن تستحيل إلى آداة تؤثر التأثير كله فى حياة الإنسان على كل مستويات حسه ووعيه وكل ما يتصل بوسائل عيشه وفكره . وقد أوفى القرآن العظيم على كل غاية فى الدلالة البالغة التى تنطوى عليها الآية الكريمة التى تجمل ماتحاول التعبير عنه بهذه السطور :

« يأيها الناس إنا خلقنا كم من ذكر وأنثى وجعلنا كم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » (١) . فالمتأمل لمعانى هذه الآية الكريمة يستطيع أن يرى فيها الإنسان إذ بدأ وحيدا ، وإنتقالته إلى الجماعة، والعبرة التى تنطوى عليها هذه الإنتقالة من إتصال الناس لتجد الحياة أسبابها وتسعى إلى مقاصدها ، وما يترتب على ذلك من حسن إدارة لهذه الحياة إذا إستطاع الإنسان أن يستلهم المثل العليا المتقدة التى تصلح من شأنه وترتب أوجه حياته .

وبنى هذا الإنسان الذى ألقى به على درب الحياة وحيدا الحضارات التى دارت ودالت ثم توالت إلى أن إنتهت جماعة الإنسان إلى عالم القرن العشرين

---

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٣ .

الذى أوشك الإتصال فيه أن يلغى ما بين الأمم والشعوب من حدود، وتيسرت سبل هذا الإتصال ووسائله على نحو حدا بقائل أن يقول إن العالم قد تقلص حجمه . وكان على هذه الجماعة الإنسانية أن تسعى سعيها ، على ما فيها من فوارق الجنس واللغة والمعتقد فى سبيل تحقيق القدرة على الإئتلاف وموازنة المصالح بحيث تقل المنازعات وتنتهى الحروب . وإستطاع الإنسان أن يعطى نفسه قبل الحرب العالمية الثانية « عصبة أمم » ثم أعطى نفسه بعدها « هيئة أمم » يحاول من خلالها أن يتفق على رأى أو آراء يعينه الإجتماع عليها على التقليل من الأخطار التى تهدد أمن الإنسان وسلامته وقوته وثقافته وكل مقومات حضارته (١) .

ويستبين بما أسلفنا أنه يستحيل على الإنسان أن ينغلق على نفسه فى نطاق الجماعة التى تعورف على تسميتها بالدولة وأنه لابد لهذه الدولة أن تعيش وتتبادل المصالح على شتى المستويات فى نطاق مجتمع دولى يتألف من دول العالم كافة . ولما كان لكل دولة أن تحاول تحقيق مصالحها القومية بالتعاون مع دول أخرى كان لزاما على هذه الدولة أن تحترم مصالح هذه الدول . وإستطاع الانسان فى مسيرته الطويلة أن يهيء من الوسائل ما يكفل له تهيئة المناخ الذى يلائم هذا التعاون الدولى فأوجد الأعراف والقيم والنظم والتنظيمات التى تعين على تحقيق ذلك ، والتى تتمثل على سبيل المثال — فى الإعلان العالمى لحقوق الانسان (٢) والقوانين والأعراف الدولية وهيئة الأمم المتحدة والأجهزة التابعة لها .

وإذا ما ألقينا نظره على هيئة الأمم المتحدة بجمعيتها العامة ومجلس أمنها

---

(١) أنظر الملحق الثانى من الملاحق العربية.

(٢) أنظر الملحق الثالث من الملاحق العربية .

نجد أن العمل فى تلك الجمعية وهذا المجلس يقوم على أساس عملية التصويت . وذلك يعنى أن ثمة عمليات إتصالية لابد من أن تتم لتشكيل أو صياغة رأى معين قبل إتخاذ أى قرار من قرارات الأمم المتحدة والتى تتعلق كما هو معروف بكل ما يهم الجماعة الإنسانية كمجتمع دول . ويترتب على ذلك أن هناك رأيا عاما دوليا يستطيع فى أحوال كثيرة أن يؤثر فيما يسود العالم المعاصر من نظم وسياسات وإيديولوجيات .

ولا يقلل من أهمية هذا الرأى أو شأنه أن الإنسان هو الإنسان — رغم جهده وإجتهاده — وأنه كثيرا ما ينزع إلى التعدى والعدوان مدفوعا بهوى المصلحة تارة وبعصبية العرق أو تعصب الإيديولوجية فى تارات أخر . فإذا ما تجاوزنا الجمعية العامة للأمم المتحدة لنقف قليلا عند مجلس الأمن نجد أنه يحق لأى عضو من الأعضاء الخمسة الدائمين (١) فى هذا المجلس أن يستخدم ما يسمى بحق الإعتراض Veto أو الفيتو إزاء أى قرار يجمع عليه غالبية الأعضاء الدائم منهم والمنتخب إذا لم يتفق هذا القرار مع مصلحتها أو هواها . والتاريخ القريب بما فيه من حرب باردة وسياسات الإستقطاب والأحلاف السياسية والعسكرية خير شاهد على المصلحة والرابطة بينها وبين الإيديولوجيات المعاصرة فى غير ما حاجة إلى بيان فى القرارات التى يتخذها مجلس الأمن من ناحية والجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة من ناحية أخرى فى شتى الأمور التى تتصل بقضايا العالم المعاصر والتى ترتبط إرتباطا وثيقا بأمن الإنسان وحربه .

وغنى عن البيان بالطبع أن للأمم المتحدة أجهزة عديدة إستطاعت وتستطيع

---

(١) الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن : الولايات المتحدة الأمريكية وإتحاد الجمهوريات السوفيتية والمملكة المتحدة وفرنسا وجمهورية الصين الشعبية .

من خلال الإتصال والإتفاق أن تؤدى خدمات جليلة فى مجالات ثقافة الإنسان وتنمية قدراته وصحته وأمنه ورعاية طفولته ولاجئيه من ضحايا الفكر وحروب الطبيعة والإنسان إلى ما غير ذلك مما يتجلى فى أدوار منظمة « اليونسكو » UNESCO(١) ومنظمة الصحة العالمية WHO(٢) ومنظمة الاغذية والزراعة FAO(٣) والصندوق الدولى لرعاية الطفولة UNICEF(٤) ووكالة الإغاثة والتشغيل UNRWA(٥) .

والرأى العام العالمى — سواء إنتهى إلى قرارات تتخذها أجهزة ومنظمات ولجان الأمم المتحدة أو أدى إلى التأثير فى مواقف الجماعات الإنسانية من خلال قنوات الإتصال الكبرى أدوارا يلعبها العمل على تصفية الإستعمار والتصدى للإتجاهات العنصرية وفرض الجزاءات على الدول كما هى الحال فى حالة جنوب أفريقيا وروديسيا ، وإن كانت مصالح بعض الدول وجماعات الضغط قد تقف أحيانا حجر عثرة فى طريق إستكمال هذه الجزاءات لفاعليتها ، والمثل القريب الدال على ذلك تلك الفضيحة التى أثيرت فى هذه الأيام فى بريطانيا والتى يطلقون عليها إسم : Oilgate قياسا على فضيحة Watergate الأمريكية الشهيرة والتى كانت القشة التى قصمت ظهر الرئيس نيكسون — عندما تبين أن شركات النفط البريطانية كانت تقوم بإمداد روديسيا بالبترول بالرغم من قرار الحظر الذى فرضته الأمم المتحدة على ذلك عام ١٩٦٦ . والإستخفاء بعمليات الإمداد

---

(١) United Nations Educational, Scientific & Cultural Organization.

(٢) World Health Organization.

(٣) Food & Agriculture Organization.

(٤) United Nations International Children's Emergency Fund.

(٥) United Nations Relief & Work Agency.

هذه بالغ الدلالة على أهمية الرأى العام الدولى والمحلى معا فى السياسات المعلنة للحكومات التى كثيرا ما تضطر إلى تبنى شعارات تخاطب بها مجتمـــع الإنسان ، ثم تسلك سلوكا مجافيا لروح هذه الشعارات أو ينبى عن الإنحياز فى إطار فكرى أو إيديولوجى معين كما هى الحال عندما نلاحظ أن الولايات المتحدة الأمريكية تعلن أنها تتخذ موقفا متشددا إزاء الدول التى لا تحترم فيها حقوق الإنسان وتنحى باللائمة على كوبا والإتحاد السوفيتى وتتبنى قضية المنشقين عليه ، ثم لا تلبث أن تطيل إغضاء الطرف عما يجرى فى إيران أو نيكاراجوا وما يلقاه الإنسان من عنت على يدى دكتاتور يهدر كل الحقوق .

ومن أقرب الأمثلة على إضطرار الإدارة إلى الإلتزام أمام الرأى العام السائد بين جماهير شعبها بقيم معينة ، حتى فيما يتعلق بقضايا لا تصطبغ بالصبغة المحلية المطلقة ما نراه من أن الإدارة الأمريكية لم تستطع قبل إنتهاء إنتخابات نصف المدة التى أجريت فى السابع من نوفمبر ١٩٧٨ Mid – term elections أن تؤيد الحكومة العسكرية التى شكلت فى « إيران » على إثر الإضطرابات الأخيرة ، ثم أيدت هذه الحكومة تأييدا كاملا بعد ذلك . ونحن نورد هـذا المثل لدلالته البالغة على قيمة وأثر الرأى العام من ناحية وعلى أن ماينتشر بين الشعوب أحيانا من قيم قد يتعارض مع تحقيق أهداف السياسات التى تنتهجها الحكومة وتضطر فيها إلى مراعاة مصالحها القومية بكل سبيل .

- تعريف الرأى العام

ويستخلص من هذا أن قيمة الرأى العام وأثره يتجليان كأوضح ما يتجليان فى الفترات التى تسبق الوصول إلى الحكم أو تعاصر إجراء تغييرات تمسه ، وهذا ينصرف بالطبع إلى الرأى العام بالمعنى المحلى وإن كان له أثرا أيضا فى الرأى العام

العالمى . ويستبين من ناحية أخرى أنه يتمثل فى المواقف المعلنة لأصحاب السلطة ومن هم فى طريقهم إليها ضرب من ضروب التأثير فى الرأى العام أو التأثير عليه ، وأن إستقرار السلطة يتيح لمتخذى القرار فرص إستخدام وسائل الإتصال المتنوعة لتشكيل الرأى العام على نحو يسهل إستبقاء آداة الحكم فى أيديهم ، على أنهم فى ذلك كله يتقيدون إلى حد أو آخر بمقتضيات مصلحية وقومية وإيديولوجية معينة ، وأنهم لا يستطيعون أن يتناطحوا جهرة وتحت غلالة الديمقراطية مع أمانى الإنسان فى جماعته المحلية والدولية .

وبعد أن إنتهى بنا السياق إلى مناقشة الرأى العام الدولى الذى لاحظنا أنه لم يحظ حتى الآن بما يستحقه من عناية الباحثين الأكاديميين لا بد لنا من أن نحاول وضع تعريف يلم بأطراف ظاهرة الرأى العام على إتساعها الذى يتعدى النطاقات المحلية .

ولعل الأنسب أن نبدأ بتقصى العناصر التى تدخل فى هذه الظاهرة أو ترتبط بها عنصرا عنصرا :

١ ـ الأفكار : من الفكرة الواحدة إلى النسق الفكرى (الإيديولوجية أو العقيدة) .

٢ ـ المواقف : التى تترتب على الأفكار عند الأفراد والجماعات فى النطاقات المحلية والقومية ، والداخلية والخارجية .

٣ ـ ونطاقات هذه المواقف تشمل كل ما يهتم به الإنسان أو يمس حياته كفرد ينتمى إلى نفسه أو إلى جماعته أو إلى جماعة الإنسان أو كنسق إجتماعى يشترك فى سمات قومية وحضارية تحدد قضاياه وتصل أو تباعد ما بينه وبين الأنساق السياسية الإجتماعية الأخرى فى مجتمع الدول .

٤ — إتفاق أو إتساق : العدد الأكبر من الأفكار الكاملة أو المواقف فى حدود موضوع أو موضوعات بعينها هو الحصيلة التى يعتد بها كحكم أو رأى إزاء هذا الموضوع أو هذه الموضوعات .

٥ — وفاعلية هذا الإعتداد نلمس أهميتها على المستوى الرسمى فى النطاقات الداخلية فى الغالب وعلى المستوى غير الرسمى فى النطاقات الخارجية فى الغالب .

٦ — دواعى المصلحة الفردية أو الجماعية أو دواعى الإنتماء الإيديولوجى هى الدوافع الحاسمة وراء محاولات صياغة وتعديل الرأى .

٧ — صياغة الرأى والتأثير فيه يتمان من خلال عمليات الإتصال .

٨ — أثر الرأى العام قد يكون جسيما أو محدودا تبعا لمقدار القوة القادرة على تحقيق الإذعان والمتاحة لدى أصحاب القرار .

وهذا يعنى أن الحاجة إلى القوة اللازمة لتحقيق الإذعان قد تتناسب عكسيا مع كفاءة الإتصال . وليس ثمة قيمة سلبية مطلقة للفشل النسبى فى الإتصال إذا ووزن مثل هذا الفشل بالقدر المناسب من القوة المحققة للإذعان إذا كانت تلتزم بقيمة أخلاقية أو موضوعية .

ويعن لنا بصدد ما إنتهينا إليه من إشتراط إلتزام القوة المحققة للإذعان بالأخلاقية والموضوعية أن نشير إلى أن غيبة هذا الشرط هى الفيصل بين الديكتاتورية المطلقة غير الواعية والفاشية من ناحية وبين الممارسة السياسية الإجتماعية التى تتوخى صالح الناس الذين قد لا يتأتى لهم فى كل حال أن يعوا صالحهم فى نطاق الجماعة كائنا ما قد تكون التسمية التى يطلقها المصنفون على النسق السياسى الذى تتم فيه هذه الممارسة . ومن الواضح أن الكثير من النظم الليبرالية تستعيض بادىء ذى بدء بالزيف والتزييف فى العمليات الإتصالية

عن إظهار ما لا بد لها من أن تنتهى إليه من إستخدام لقوة القهر إذا باء زيفها أو تزييفها بالفشل .

وأحسب أنه يحق لنا بعد أن فصلنا التفاصيل، ثم حاولنا من خلال التجريد أن نحدد العناصر الداخلة فى ظاهرة الرأى العام أو المرتبطة به أن نحاول وضع تعريف عام لهذه الظاهرة التى نلاحظ أن الباحثين وقفوا عندها حائرين وترددوا وإختلفوا ولم ينتهى بهم سعيهم إلى غاية تشفى غله . ولقد توخينا فى تعريفنا ضربا من البساطة غير المخلة ، إذ تستطيع العين المتأملة أن تنفذ من خلال صياغتنا إلى الحقائق التى أقمنا عليها هذا التعريف خاصة بعد أن جردناها فى العناصر الثمانية السالفة ، والتى تنتهى فيها إلى أن الرأى العام عندنا هو :

« حصيلة أفكار ومعتقدات ومواقف الأفراد والجماعات إزاء شأن أو شئون تمس النسق الاجتماعى كأفراد وتنظيمات ونظم ، والتى يمكن أن يؤثر فى تشكيلها من خلال عمليات الاتصال،التى قد تؤثر نسبيا أو كليا في مجريات أمور الجماعة الانسانية على النطاق المحلى أو الدولى » .

الفصل السادس

الدعاية

- تمهيد
- الدعاية وتباين نطاقاتها
- الضغط العاطفي
- دعاية أم تعليم
- الدعاية غير المتعمدة
- الدعاية عن طريق الرقابة
- تعريف الدعاية

تمهيد

بعد أن إنتهت بنا محاولاتنا إلى وضع تعريف للرأى العام تتضح منه الصلة بين القوة بشتى ضروبها والإيديولوجية وهى صورة من صورها والإتصال وهو أداتها والرأى وهو هدفها ، يتبين لنا أن الرأى العام هو ذلك الشىء الذى يستهدف صياغته وتشكيله والتأثير فيه أصحاب المصلحة من التجار وأصحاب الأفكار ومتخذى القرار .

وهذه المحاولة للتأثير فى الرأى قديمة جديدة . وكما بينا فى مواضع مختلفة من هذا البحث بدأت بالإتصال المباشر بين إنسان وإنسان بعد أن أصبح لهذا الإنسان لغة وأفكار ، وإنتهت فى عصرنا إلى صناعة رأى يقوم على تكنيكات معقدة يحاول بوساطتها المشتغلون بتطويع العقول أن يجدوا من المداخل النفسية وغير النفسية ما يعين على تحقيق تغيير فعلى فى مواقف الناس . وتزداد هذه التكنيكات ضراوة بالقدر الذى يزداد به عقل الإنسان قدرة وإستنارة وعناداً، على نحو يمكن أن يقال معه بحق إن أبناء القرن العشرين واقعون ولا محالة تحت تأثير لا يقاوم لمحاولات تغيير الآراء والمواقف والتحريض الجمعى فى عصر توافرت فيه أسباب القوة عند أصحاب الإيديولوجيات المسيطرة بدرجة أظهرت أن القوة الفائقة المتاحة للمعسكرين اللذين يقفان على رأس العالم ألغت كل فعالية لقوة أحدهما إزاء الآخر على المستوى الفيزيقى ولم يبق لهما إلا أن يتصارعا على المستوى الإيديولوجى . ومن ثم أصبحت شعوب العالم ودولة نهبا تتناول عقول أفرادها وجماعاتها المخالب الإتصالية للإيديولوجيات بعد أن إضطرت أو أوشكت أن تضطر إلى إغماد سيوف حربها ليحل همس الكلمات وضجيجها محل قعقعة الأسلحة ودمارها . ولعلنا مع التفاؤل نرجو ألا يستعاض عن خراب البنيان بخراب الوجدان .

ولا ينبغى لنا على كل حال أن ندع الصراع الإيديولوجى ، وإن كان بالغ الخطر فى آثارة على مسيرة حضارة الإنسان ، يفوت علينا فرصة رؤية الجوانب الإيجابية الهامة للعمليات الإتصالية . إذ لاشك أن الفكرة الطيبة والمعتقد الأصيل ما كان ليبلغ أى شأن فى محاولة المصلحين من بنى الإنسان لتهيئة المناخ الملائم لتقدم البشرية على دروب فكرها وحياتها . ولا ينبغى للنظة الإيديولوجية أو ما تضطر إليه الإيديولوجية من صراع يقوم فى الكثير من جوانبه الهامة على الدعاية أو ما إرتبط بكلمة الدعاية من مدلولات سيئة، أن تنأى بنظرتنا عما قد تنطوى عليه الإيديولوجية أو المعتقد من مضمون يستهدف صالح الجنس البشرى . ولا يستطيع أحد أن يزعم أن الإيديولوجية الدينية على سبيل المثال تستهدف الفرقة بين الناس . وما إرتبط بالإيديولوجيات الدينية من صراع وفرقة صبغت وتصبغ حقباً طويلة من التاريخ لا يرتبط فى الأساس بمحاولة الإنسان الوصول إلى الله الحق بقدر ما يرتبط بما هو سياسى Political أو بما هو ممارسة لقوة سياسية Political Power أو نزوع لسلطان . إذ أننا نرى أن النسق الذى يقوم فى أول الأمر على التركيز على ما هو روحى يستحيل بعد أن تكفل له القوة الروحية قدرة على التأثير فى جموع الناس إلى نسق تغرى فيه قلة من الناس أو صفوة منهم — مدفوعة بحب الإنسان للإنسان أو بحبه لنفسه أو بتعصبه أو بعصبيته — بممارسة ضرب من القوة لا يقتصر على إستلهام ما هو روحى أو الهى . فتبرز إلى الوجود أنساق يتمثل فيها سلطان الكهنوت الذى أعطى فى تاريخ البشرية أمثلة واضحة على التأى الكامل عن جوهر المعتقد الخالص . ونلاحظ فى هذه الأحوال أن الأنساق الثيوقراطية قد لا تختلف فيما تحاوله من تبشير عن الأنساق التى تقوم على إيديولوجيات وضعية فيما تتخذه من ضروب الدعاية والإعلان . وقد تبقى مشكلة الإنسان الفرد هى هى فى إقتناعه وإنكاره ،

أو فى ضياعه وإغترابه ، بما هو أو بين ما هو معتقدى أو سياسى على التباس فى الأمر شديد .

على أنه إذا قدر لصفوة الفكر بين البشر أن تستطيع تخليص نفسها من نوازع الهوى والغرض وأن تلتزم جادة العقل وروح التجرد ، فإنها ستخلص ولا شك إلى أن الإنسان وإن لم يستطع فى إستكناهه لصفحة الكون المطروحة على عقله ووجدانه أن يهتدى إلى الطريق المؤدية إلى الله الواحد الحق لا بد له ، حتى يبقى ، من أن يسلم بأن أبناء البشرية ينتمون إلى عالم واحد وإن تباينت إنتماءاتهم المعتقدية عبر التاريخ بين جوبتر وأبوللو وآلهة الشرك فى القديم وبين أوثان العصر الحديث التى تجرى فى عروقها الدماء وتستبد بها الأهواء ، مع ضيعة الدين الحق بين فلسفات المتفلسفين وتهويمات المهومين .

وكلامنا هذا ليس من قبيل التعليق بقدر ما هو محاولة توصيف لواقع تاريخى هيأ ويهيء أنسب مناخ ترتبط به الأهمية القصوى لعمليات الإتصال .

وننتهى إذن إلى أن « الدعاية » ركيزة من ركائز إجتماع الإنسان وسمة بارزة من سماته ، سواء إلتبست أمور السياسة والمعتقد أم إتضحت ، وسواء إختلفت المصالح أم التقت فما هى هذه « الدعاية » إذن ؟ أهى مجرد الإعلان ، الذى يقدم على أنه إعلان وتصحبه الموسيقى أو الرسوم على شاشات التليفزيون إبن القرن العشرين المدلل والذى يروج لسلعة أو لأخرى ؟ أم هى ذلك البرنامج حسن الإخراج الذى يتسلل إلى وعيك فيستهدفك تحييزك أو تحييدك ليضيف قوة إلى رأى معين أو ليستلب بعض قوة هذا الرأى ؟ أم أن الدعاية هى الصحافة فى إعلامها المباشر أو غير المباشر ؟ أم هى الكتاب أو المرجع ؟ أم هى غير ذلك ؟ هى ذلك كله ، وغير ذلك كله ، فى آن وفى غير آن .

لننظر إلى ما يعرف قاموس أكسفورد الدعاية Propaganda به . بدأ القاموس بتعريف ما أصطلح على تسميته بـ «الدعاية The Propaganda معروفة بـ « الـ » على أنه مجمع أو لجنة الدعاية وهى لجنة من الكرادلة يناط بها مهمة التبشير الخارجى ، ثم مضى القاموس فى تعريف « الدعاية » على أنها جماعة ، أو خطة منظمة لنشر معتقد أو ممارسة ، أو أنها التعاليم أو المعلومات التى تنشر على هذا النحو ، أو أنها جهود وخطط ومبادىء هذا النشر . (١)

ويشير القاموس إلى أن كلمة Propaganda لفظة إيطالية مأخوذة من اللاتينيــة الحديثة فى التسمية «Congregatio de Propaganda Fide» ، أى مجمع أو لجنة نشر العقيدة . وهى اللجنة التى أنشأها البابا Urban الثامن فى عام ١٦٣٢ لتتولى مهمة التبشير الخارجى والتى أصبحت كلمة « الدعاية » المقرونة بأداة التعريف The Propaganda تنصرف إليها كما يتبين من التعريف الأول للكلمة . وترجع هذه اللفظة الإيطالية إلى الفعل اللاتينى Propagare الذى يعنى إعادة غرس المسلوج ليعطى نبتا جديداً فى مكان جديد ولا تزال هذه اللجنة تقوم بعملها فى الفاتيكان حتى اليوم ، وينظر إلى مهمة التبشير على أنها عمل نافع يتيح الفرصة لغير المسيحيين ليتعرفوا على تعاليم المسيحية ، وأنه لولا مثل هذا التدخل لما أمكن للمسيحية أن تجتذب إلى حظيرتها الكثيرين من الأتباع .

(Congregation, College, of) the propaganda, Committee (١) of cardinals in charge of foreign missions - 2 - Association, organized scheme, for propagation of a doctrine or practice; doctrines, information, etc. thus propagated, efforts, schemes, principles of propagation.

ومن الواضح فى هذه الحالة أن الذين يقومون بالتبشير يعمدون إلى ذلك بعد تدبر ، بمعنى أنهم يقومون بضرب من الدعاية الواعية المتعمدة والتى كانت ولا شك ترتبط بنية طيبة وقصد حسن .

الدعاية وتباين نطاقاتها

ومشكلة الدعاية أو الدعوة فى النطاق الدينى تتمثل فى أن الإنسان المعين يقف فى السياق الحضارى أو التاريخى المعين عند حدود مفاهيم دينية معينة ، ولا يسمح لنفسه أو لا يسمح له النظام الكهنوتى بأن يمد نظره إلى ما وراء هذه الحدود ، وإن قدر له أن يدرس ما مضى كتاريخ فعليه ألا يأخذ بما تلى كمعتقد . ومن هنا ينشأ الصراع بين عقيدة ترى أنها أصيلة وعقيدة ترى أنها تضيف وتجرى على سنة التطور . ولا نخرج بهذا من دراستنا لدين ودين آخر على سبيل المقارنة وحسب ، وإنما نخرج به أيضاً من دراستنا للمعتقدات المختلفة والسابق واللاحق فى نطاق الدين الواحد . ولهذا نلاحظ من ناحية أن المعتقدات الدينية تجد نفسها مضطرة إلى الإستعانة بضروب من الدعاية (١) إزاء بعضها البعض ، على حين أنه يتعين على هذه المعتقدات من ناحية أخرى أن تتصدى بالدعاية للأفكار الإلحادية التى تحاول بالدعاية أيضاً أن تقضى عليها .

وإذا كان للدين فى وجدان الإنسان مكان ومكانة فإن قدرة الإنسان على إستقراء صفحات الوجود والكون من حوله تزيدها رعاية وقوة وعمقاً وتقيمها على أساس متين ، وما أروع القرآن العظيم فى عمقه وأعجازه إذ يقول : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » (٢) .

---

(١) أنظر : G. Cronkhite, op cit., pp. 79 – 80, 204.

(٢) سورة فصلت ، الآية ٥٣ .

وإذا كنا نلاحظ أن بعض أصحاب الإيديولوجيات يزعمون أن ما يدعون إليه متمثل فى وجدان الإنسان على نحو يجعلهم فى غير ما حاجة إلى دعاية ، وأن مسيرة التاريخ ستعكس ما فى الوجدان على الوجود ، فما هـــذا كله إلا من قبيل الدعاية .

ونستطيع مما أسلفنا أن نتبين معالم مجالين أساسيين من مجالات الدعاية وهما مجال الدعوة إلى الدين ومجال الدعوة ضد الدين على التباس بين مجالات الفـكر ومجالات السياسة ولهذا أعطانا التاريخ ويعطينا أمثلة لا حصر لهـا من دعاة يمكن أن نفرق بينهم على أنهم دعاة دين أو دعاة سياسة . ولا نقول دعاة فـكر أو أصحاب فلسفة . فالأفـكار والفلسفات متوزعة هنا وهناك .

وارتبطت كلمة الدعاية كما أسلفنا فى بداياتها الأولى بالدعوة التى تستهدف التقويم كما ترتبط عند بعض المفكرين بحسن الظن فى قدرة الإنسان على فهم طبائع الأشياء والحكم عليها إذا أتيح له أن يفهم ويستخلص . فنلاحظ أن William Godwin يرى فى كتابه Political Justice عام ١٧٩٣ أن الإنسان كائن تحكم سلوكه آراؤه . فالرزيلة خطأ ، والأخطـاء يمكن أن يقومهـا التعليم . ويقول جودوين : « أرى فى جلاء لا لبس فيه أن التصرف على نحو ما معقول فى حد ذاته ، أو أنه موف لغايتى (١) ، فستجدنى التزم بكيفية التصرف هذه طالما بقيت الآراء التى تقترحها على ماثلة فى ذهنى » . ويصل جودوين باستدلالاته إلى النتائج المنطقيـــة التى كان لا بد أن ينتهى إليها فيقول : « وإذا ما جعلت مقتضيات العدل الواضحة فى متناول كل قدرة . . . سيصبح النوع البشرى كله

---

(١) غنى عن البيان أن الغاية فى هذا السياق لا ترتبط بما هو دنيوى .

معقولا وفاضلا . وسيكتفى المحلفون عندئذ بأن يوصوا (١) بالطريقة التى تسوى بها المنازعات ..... ثم أنهم سيكتفون أيضاً بدعوة المسيئين إلى أن يتصرفوا عن غيهم.....وحيث يعترف الجميع بهيمنة العقل على هذا النحو ، فإنه سيكون على المسىء أن يستجيب لتحذيرات السلطة وإذا ما عن له ألا يستجيب فإنه ، وإن كان أحد لا يتحرش به يستشعر وطأة الضيق إزاء الرفض الواضح لمسلكه وأعين الناس التى ترصده وتحكم عليـــه على نحو يجعله راغباً فى الإنتقال إلى مجتمع أقرب إلى موافقته فى غيه . (٢)

والقيمة الكبرى التى يربطها « وليم جودوين » بالعملية التعليمية ثم بلغة العصر ، بالإعلام فى محلها ولا جدال . ولكن الآمال الكبار التى يعلقها على العملية التعليمية تعكس حسن ظن يوشك ألا يجد له مبرراً فى تاريخ البشرية قبل جودوين وبعد عصره بحوالى قرنين من الزمان . ولا يفوتنا أن نستحضر فى الذهن ما سبق أن أشرنا إليه من أن بعض فروع العلم ومناهجه أصبحت فى عصرنا ضروباً من ضروب الدعوة أو الدعاية .

ولفظة الدعاية التى إرتبطت فى أول الأمر برغبة خيرة ، أضفى عليها قرننا العشرون غلالة سيئة جعلها لا تعدو أن تكون فى نظر الكثيرين سوى ضرب من ضروب الكذب المتعمد الذى يقوم به الفرد أو الجماعة فى شتى مجالات الحياة بقصد التأثير فى عقول الناس وتشكيل مواقفهم على نحو لا يتفق فى كل حال مع ما هو صحيح وإنه لما يؤسف حقاً أن نجد أن الإنسان ، وهو المستهدف بكل أفانين الدعاية

---

(١) بمعنى أنهم لن يضطروا إلى إصدار أحكام ، على أساس أنه بعد بياناتهم لجوانب الحق ومقتضيات العدل سيلتزم الناس بها .

(٢) أنظر الملحق الخامس فى اللاحق الانجليزية.

والإعلان أمتحن ويمتحن فى صميم معتقده على نحو أدى ويؤدى إلى إغترابه من ناحية ، وإلى توارى القيمة الحقيقية من ناحية أخرى ويزيد من سوء ذلك أن أصحاب القيمة ، بالحقيقة أو بالتوهم قد يجدون أنفسهم وهم فى حمأة الدعاية والإعلان مضطرين إلى إتباع مناهج تعمد إلى الإخفاء أو الإلتواء حتى يستطيعوا أن يحاربوا خصومهم بفعالية وأن يبلغوا مقاصدهم . ونمثل لذلك ببعض الإيديولوجيات التى تعمد عند طرحها لمبادئها فى مجال معين إلى الإستخفاء مرحلياً ببعض هذه المبادىء أو التعاليم إذا كانت تتناطح تناطحاً مباشراً مع معتقد سائد أو ضارب الجذور بين الناس أو فى تراثهم إلى أن تستطيع أن تجتث شأفة هذا المعتقد آخر الأمر إن وجدت إلى ذلك سبيلا .

ويستدل من ذلك على أنه فى عملية الدعاية أصبحت حقيقة المعتقد فى حد ذاتها تأتى فى مرتبة من الأهمية تتلو مرتبة الصورة التى يطرح بها هذا المعتقد، أو التى يعن لأصحاب المعتقد أن يطرحوها ، على الناس . والجهل يلعب أهم دور فى ذلك ، إذ ما كان يتأتى لأصحاب الرأى أو الفكر أن يطرحوه على نحو لا يتمشى فى كل حال مع واقعه ما لم يفترضوا سلفاً أن المتلقى يجهل أو لم يؤت بعد القدرة على أن يعلم بالرغم من أن ما يطرح عليه على نحو مغاير موجود فى مصادره ، ويعمد أصحاب هذا الرأى أو الفكر آلهتهم على أن البشرية فى مجموعها ليست من أهل التقصى أو البحث كما يستدل من ناحية أخرى على أن المتلقى بخلفياته عنصر هام فى حسابات صانعى الرأى ومطوعى المقول.

وإذا شئنا أن نحدد على وجه التقريب الفترة الزمنية التى بدأت كلمة «الدعاية» تلتبس فيها بشكل حاد الظلال السوداء التى تكتنفها فإننا نرجع فى التاريخ

القريب إلى الحرب العالمية الأولى(١) التى إتسمت فيها حروب الإنسان بطابع شامل وإستخدمت أساليب الدعاية الكاذبة على أوسع نطاق ، وعمد المتحاربون إلى تلفيق ونشر الكثير من الأضاليل والأخبار التى تجرد الخصوم من إنسانيتهم وتربط بينهم وبين أكثر صور التعدى والتجاوز بشاعة .

وإن كانت هذه الأساليب والمناهج قد لعبت دورها إبان الحرب العالمية الأولى ، فإن الكشف عنها ، خلال الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الأولى وسبقت الحرب العالمية الثانية أدى فى حد ذاته إلى إحداث تغيير سلبى فى مشاعر الناس إزاء المنتصرين من ناحية ، وإلى جعل المهزومين يعزمون على أن يستخدموا نفس الأساليب والمناهج بطريقة أفضل إذا ما أتيحت لهم الفرصة. وبدأ الناس ينظرون إلى الدعاية على أنها شىء خادع يفترض الغفلة فيهم ويبتغى السبيل إلى عقولهم سواء أرادوا ذلك أم لم يريدوه . وترتب على ذلك محاولات عديدة وخاصة فى الدول التى تقدمت أدواتها الفنية لإستنباط مناهج جديدة أشد خفاء وأكثر فاعلية تحسن إستخدام قنوات الإتصال ، وإنتهى الأمر إلى إرتباط الدولة الحديثة فى صميم بناءاتها بهذه المناهج والأساليب على النحو الذى بيناه فى غير موضع . وبدأت كلمة الدعاية فى الحقبة الأخيرة تكتسب معان وظلال معان وتعبر عن مجموعة متنوعة من الأساليب والنظم على نحو يجعل تعريفها أمراً صعباً إذا كان لنا أن نلمح آثارها ونستطيع التغلغل فيما وراء أقنعتها . ومع ذلك فإن معناها ظل يرتبط على وجه العموم بظلال السلب أكثر منه بظلال الإيجاب .

وبعد أن كانت هذه الكلمة تستخدم للدلالة على أن فرداً أو جماعة يحاولون

---

(١) أنظر : W. Lippmann, Public Opinion, PP. 81-83

طرح شيء ما على أفراد آخرين أو جماعات أخرى بقصد إخبارهم به وجلاء خصائصه أو نفعه ، باتت اليوم تعنى ، فيما تعنى ، إضفاء صفات غير حقيقية على شيء يطرح على المتلقى ، وعملية الإضفاء هذه وعملية التلقى ترتبطان الآن بتكنيكات تتعقد على نحو انتهى بها إلى ما يطلق عليه « غسيل المخ Brainwashing ».

وإذا ما استرجعنا ما سبق أن بيناه فى هذا السياق من الأهمية التى ترتبط فى عملية الدعاية بالمتلقى وخلفياته يتبين على الفور أن التعريف القاموسى الذى سبق أن أوردناه أصبح قاصرا ، إذ أنه لم يتعرض للظلال والجوانب المعقدة التى ترتبط الآن بمصطلح « الدعاية » . كما يتبين أن للدعاية خصائص أخرى وأن فعاليتها والشكل الذى تتخذه يرتبطان ارتباطاً وثيقاً ببنساء المجتمع الذى تجرى فيه وما هو متاح لهذا المجتمع من وسائل فنية .

الضغط العاطفى

ولعل الذى يحدونا إلى محاولة الإضافة إلى التعريف القاموسى أن للداعية أو من يقوم بالدعاية لا يتصدى فى كل حال بنشر معتقد معين أو ممارسة معينة ، إذ لا ينصرف ذلك إلى مضامين ما يحاول نهش عقولنا من أخبار وإعلان ، ولا نستطيع القول بأن الذين يقومون بالدعاية إبان الحروب يحاولون إحداث تغيير فيما نعتقد إذ أنهم يوجهون فى الحقيقة جهودهم إلى التأثير فى عواطفنا أو كسب موافقتنا أو تحييزنا إلى جانب أو آخر .

وهذا يعنى أن محاولة التأثير فى العواطف أو ما يسمى بالضغط العاطفى، سواء أكان هذا الضغط يستهدف خلق شعور جمعى ، سلبى أو إيجابى ، إزاء شىء معين سواء كان يستهدف مجرد طرح آراء تقوم على أساس عاطفى ، ليس شيئاً عارضاً فى عملية الدعاية بل هو الشيء الأساسى فيها . إذ من الواضح أن مخاطبة العقل

المجرد تتخذ فى العادة أسلوبا أو منهجا يختلف فى الأساس عن أساليب الدعاية ومناهجها .

ويستدل على ذلك من أن النهج السقراطى فى الإقناع ، على سبيل المثال ، والذى كان يقوم على توجيه أسئلة إلى تلاميذه تهديهم إلى حلول المشكلات والمسائل التى كانوا يثيرونها ، كان ينتهى بهم إلى الوصول إلى الحقيقة فيما يتعلق بهذه المشكلات أو المسائل ويحدث تغييراً فعلياً فى آرائهم على أساس منطقى ودون ما محاولة للتأثير فى عواطفهم. ولا يمكننا فى هذه الحالة أن نقول أن سقراط كان يقوم بدعاية بشكل أو آخر ، فى حين أنه من الواضح أن أصحاب الدعاية لا يلتزمون عادة جانب المنطق الصارم . وإذا ما طرحوا أسئلة فإنهم يطرحونها وقد تهيأت لها سلفا فى أذهانهم إجابات محددة ، فضلا عن أنهم قد يطرحونها بتكتيك أو طريقة تكفل الوصول إلى هذه الإجابات المحددة. وينبغى أن نلاحظ أنه لا يمكن لأحد أن يحتج بما كان لسقراط من ثقة ونقل على أنه عامل من عوامل التأثير أو الضغط العاطفى . ونستخلص من هذا أن الدعاية لا تأخذ بالمحاجاة الأصيلة من جهة ، وإنها وإن كانت تستهدف تغيير ما فى العقول ، فإن تغيير الآراء لا يرتبط فى كل حال بالدعاية ونلاحظ أثر هذه التفرقة فيما يتوخاه أصحاب الإيديولوجيات من إستخدام كلمة « الدعوة » بدلا من كلمة « الدعاية » ، على ما هنالك من تلبس واضح بين المعنيين .

ونستطيع أن نستجمع الفوارق الواضحة بين النهج السقراطى والمنهاج الذى يقوم فى الأساس على الضغط العاطفى إذا ما القينا نظرة على أسفار العهد القديم ورأينا كيف يستخدم أنبياؤه فصاحتهم ليصرفوا بنى إسرائيل عن عبادة الآلهة الزائفة ويوجهونهم إلى عبادة «يهوه» ويحاولون أن يثنوهم عما كانوا منغمسين

فيه من ممارسات سيئة ، فالواضح هنا أنه كان لهؤلاء الأنبياء غاية محددة يدعون اليها وأنهم يستخدمون فى سبيل بلوغ هذه الغاية مايسميه الباحثون دفاعا خاصا، Special Pleading، كما أنهم كانوا يستخدمون أسلوب الوعظ والتهديد بما ستنزله العناية الإلهية من قصاص . ودعنا نتأمل الآيات التالية من سفر اللاويين ، وهو السفر الثالث من البنتاتيوك أى أسفار موسى الخمسة :

« ولا تصنعوا لكم أوثانا ولا تقيموا لكم تمثالا منحوتا أو نصبـــا ولا تجعلوا فى أرضكم حجرا مصورا لتسجدوا له لأنى أنا الرب إلهكم . سبوتى تحفظون ومقدسى تهابون. أنا الرب إذا سلكتم فى فرائضى وحفظتم وصاياى وعملتم بها أعطى مطركم فى حينه وتعطى الأرض غلتها وتعطى أشجار الحقل أثمارها . ويلحق دراسكم بالقطاف ويلحق القطاف بالزرع فتأكلون خبزكم للشبع وتسكنـون فى أرضكم آمنين . وأجعـل سلاما فى الأرض فتنامون وليس من يزعجكم وأبيد الوحوش الرديئة من الأرض، فى ولايعبر سيف فى أرضكم وتطردون أعداءكم فيسقطون أمامكم بالسيف . يطرد خمسة منكم مئة ومئة منكم يطردون ربوة ويسقط أعداؤكم أمامكم بالسيف . وألتفت إليكم وأثمركم وأكثركم وأفى ميثاقى معكم . فتأكلون العتيق المعتق وتخرجون العتيق من وجه الجديد. وأجعل مسكنى فى وسطكم ولا ترذلكم نفسى . وأسير بينكم وأكون لكم إلها وأنتم تكونوا لى شعبا. أنا الرب إلهكم الذى أخرجكم من أرض مصر من كونكم لهم عبيدا وقطع قيود نيركم وسيركم قياما .

لكن إن لم تسمعوا لى ولم تعملوا كل هذه الوصايا وأن رفضتم فرائضى وكرهت أنفسكم أحكامى فما عملتم كل وصاياى بل نكثتم ميثاقى فانى

أعمل هذه بكم. أسلط عليكم رعبا وسلا وحمى تفنى العينين وتتلف النفس وتزرعون باطلا زرعكم فيأكله أعداؤكم. وأجعل وجهى ضدكم فتنهزمون أمام أعدائكم ويتسلط عليكم مبغضوكم وتهربون وليس من يطاردكم . وإن كنتم مع ذلك لا تسمعون لى أزيد على تأديبكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم. فأحطم فخار عزكم وأصير سماءكم كالحديد وأرضكم كالنحاس. فتفرغ باطلا قوتكم وأرضكم لا تعطى غلها وأشجار الارض لا تعطى أثمارها وإن سلكتم معى بالخلاف ولم تشاءوا أن تسمعوا إلى أزيد عليكم ضربات سبعة أضعاف حسب خطاياكم. أطلق عليكم وحوش البرية فتعدمكم الاولاد وتقرض بهائمكم وتقللكم فتوحش طرقكم . وإن لم تتأدبوا منى بذلك بل سلكتم معى بالخلاف فانى أنا أسلك معكم بالخلاف وأضربكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم. أجلب عليكم سيفا ينتقم نقمة الميثاق فتجتمعون إلى مدنكم وأرسل فى وسطكم الوبا فتدفعون بيد العدو بكسرى لكم عصا الخبز تخبز عشر نساء خبزكم فى تنور واحد ويرددن خبزكم بالوزن فتأكلون ولا تشبعون .

وإن كنتم بذلك لا تسمعون لى بل سلكتم معى بالخلاف فأنا أسلك معكم بالخلاف ساخطا وأؤدبكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم. فتأكلون لحم بنيكم. ولحم بناتكم تأكلون. وأخرب مرتفعاتكم وأقطع شمساتكم وألقى جثثكم على جثث أصنامكم وترذلكم نفسى. وأصير مدنكم خربة ومقادسكم موحشة ولا أشتم رائحة سروركم . وأوحش الارض فيستوحش منها أعداؤكم الساكنون فيها. وأذريكم بين الامم وأجرد وراءكم السيف فتصير أرضكم موحشة ومدنكم تصير خربة .

حينئذ تستوفى الارض سبوتها كل أيام وحشتها وأنتم فى أرض أعدائكم . حينئذ تسبت الارض وتستوفى سبوتها . كل أيام وحشتها تسبت مالم تسبته من سبوتكم فى سكنكم عليها . والباقون منكم ألقى الجبانة فى قلوبهم فى أراضى أعدائهم فيهزمهم صوت ورقة مندفعة فيهربون كالهرب من السيف ويسقطون وليس طارد . ويعثر بعضهم ببعض كما من أمام السيف وليس طارد ولا يكون لكم قيام أمام أعدائكم . فتهلكون بين الشعوب وتأكلكم أرض أعدائكم والباقون منكم يفنون بذنوبهم فى أراضى أعدائكم . وايضا بذنوب آبائهم معهم يفنون .

لكن إن أقروا بذنوبهم وذنوب آبائهم فى خيانتهم التي خانونى بها وسلوكهم معى الذى سلكو بالخلاف وإنى ايضا سلكت معهم بالخلاف وأتيت بهم إلى أرض اعـــدائهم إلا أن تخضع حينئذ قلوبهم الغلف ويستوفوا حينئذ عن ذنوبهم[1] .

ثم الآيات التالية من « سفر العدد » وهو السفر الرابع من البنتاتيوك أيضا .

« أو اقام إسرائيل فى شطيم وإبتدء الشعب يزنون مع بنات موآب . فدعون الشعب إلى ذبائح آلهتهن فأكل الشعب وسجدوا لآلهتهن . وتعلق إسرائيل ببعل فغور . فحمى وغضب الرب على إسرائيل فقال الرب لموسى خذ جميع رؤوس الشعب وعلقهم للرب مقابل الشمس فيرتد حمو غضب الرب عن إسرائيل . فقال موسى لقضاة إسرائيل اقتلوا كل واحد قومه

(١) سفر اللاويين ، الاصحاح السادس والعشرون ، الآيات ١ ـ ٤١ .

المتعلقين ببعل فغور وإذا رجـــل من بنى إسرائيل جاء وقدم إلى إخوته المديانية أمام عينى موسى وأعين كل جماعة بنى إسرائيل وهم باكون لدى باب خيمة الاجتماع فلما. رأى ذلك فينحاس بن العازار بن هرون الكاهن قام من وسط الجماعة وأخذ رمحا بيده ودخل وراء الرجل الاسرائيلى إلى القبة وطعن كليهما الرجل الاسرائيلى والمرأة فى بطنها. فامتنع الوبا عن بنى إسرائيل. وكان الذين ماتوا بالوباء أربعة وعشرين ألفا.

فكلم الرب موسى قائلا. فينحاس بن العازار بن هرون الكاهن قد رد سخطى عن بنى إسرائيل بكونه غار غيرتى فى وسطهم حتى لم أفن بنى إسرائيل بغيرتى »[1].

ولئن كنا قد إكتفينا فى الإستشهاد بإيراد النصين السالفين من الأسفار الخمسة الأولى فى العهد القديم، فإن بقية أسفار هذا العهد توفى فى مجموعها على الغاية فى هذا الصدد. وواقع الحال أن أسلوب الدعوة، الذى ينطوى على الضغط العاطفى بوسائله المختلفة يتناسب ولاشك مع حال الإنسان ومع سلوكه الذى لم يعكس فى كل حال عبر تاريخه الطويل القدرة على الإستجابة إلى منطق العقل ومقتضيات الضمير.

وينبى ما إستشهدنا به، وكما هى الحال دائماً فيما قد نعرفه بالإيديولوجية، بأن الداعية إذ يتصدى لخلق مواقف معينة لدى المتلقين، يحاول فى الوقت نفسه أن يزيغ غيرها من المواقف التى لاتتفق مع دعواه، أى أنه بقدر ما يعنيه أن ينشر معتقدا معينا أو ممارسة بعينها يعنيه فى الوقت نفسه أن يجتث شأفة ما يتضاد مع هذا المعتقد أو تلك الممارسة.

---

(١) سفر العدد، الاصحاح الخامس والعشرون، الآيات ١ - ١١.

دعاية أم تعليم

ويترتب على ذلك أننا لا نستطيع أن نستخدم لفظة « الدعاية » فى مجالات ما يعرف على أنه إيديولوجى إلا إذا توافرت بدائل تتجه الدعاية إلى إزاغتها أو القضاء عليها . أما الدعوة إلى معتقد معين فى نطاق يهيمن فيه هذا المعتقد دون بديل لا يمكن أن تكون من قبل الدعاية ، وإنما تكون من قبيل التعليم .

وهذا يلفت نظرنا ، إذا ما نحينا الجانب الإيديولوجى جانباً إلى أنه من الممكن أن تستخدم لفظة الدعاية فى الحالات التى يستهدف فيها محاربة ممارسات أو عادات أو أعراف سيئة كالتدخين مثلا أو شرب الخمر أو ما يصحب بعض الممارسات الإجتماعية من تقاليد ما أنزل « الله » بها من سلطان ، وكأنا يلمس ذلك فى الحملات التى تقوم بها الأجهزة المختلفة بين حين وآخر للدعاية ضد شىء معين ، أو للدعوة إلى شىء قد لا يكون له بديل ظاهر وإنما يكون متضمنا فيما يقوم به الداعين من دعوة أو دعاية .

ولا جدال فى أن سبل الإتصال الحديث ووسائله أضافت كما سبق أن أسلفنا فعالية غير محدودة الأثر أو النطاق للدعاية . وإذا قصرنا النظرة على الكلمة المطبوعة كوسيلة من أهم وسائل الدعاية وأبقاها أثرا ، خاصة بعد إنتشار الإلمام بالقراءة والكتابة والمحاولات الدائرة للقضاء على الأمية ، فإنه يحق للكتاب ، ونحن أبناؤه أن يتصدر قائمة ما نهتم به ، ولا يعبر ذلك عن إنحياز من جانبنا إذ أن الكتاب بالفعل هو أكثر أشكال الكلمة المطبوعة دواماً وأبقاها أثرا برغم ما للأشكال الأخرى كالصحافة مثلا من قدرة على الإبهار وإحداث الأثر المباشر .

الدعاية غير المتعمدة

وقضية الكتاب تثير مسألتين ، أولاهما مسألة ما يسمى بالدعاية عن غير وعى أو دون عمد ، والثانية مسألة الرقابة . وهما مسألتان لا ترتبطان بالكلمة المكتوبة وحسب ، وإن كانت الرقابة على الكلمة المطبوعة أيسر منها على الكلمة المتداولة بين الناس . ولكى نمثل لذلك فإننا نلاحظ أن الكتاب الأقدمين إكتسبوا إنتشارا أوسع بعد عصر الطباعة من ناحية وأن مؤرخا كهيرودوت، من ناحية أخرى، إكتسبت له كتاباته إسم أبى التاريخ ، ويرى البعض فى عصرنا الحديث أنه لم يكن سوى داعية منحاز إلى الدولة الأثينية ، شأنه فى ذلك شأن المرتزقة من صحفيى القرن العشرين . وواقع الحال أن هيرودوت لم يكن على وعى بإنحيازه لدولة مدينته ، ولم يكن يستطيع فى تلك الحقبة أن يعطينا معلومات موضوعية عما سواها من بقاع العالم التى كانت غير معروفة آن إذن أو التى لم تكن مربوطة ببعضها البعض بوسائل الإتصال المختلفة التى طورها الإنسان فى مسيرته الطويلة. وهذا يعنى أنه كان يقوم بدعاية عن غير وعى للدولة الأثينية. وهذا الضرب من ضروب الدعاية عن غير وعى يقوم كما هو واضح على جهل الداعية النسبى بما هو واقع خارج نطاقات إتصاله أو قدرته على الإتصال . على أن أصحاب بعض الإيديولوجيات فى عصرنا الحديث يعمدون إلى تعقيد هذا المفهوم البسيط للدعاية عن غير وعى إذ يرون أن ما يعتقدون منبث فى وجدان الإنسان وسوف يتيح له سير التاريخ أن ينعكس فى عالم الواقع . وهم بذلك ، وإن كانوا يميلون إلى الإعتقاد بأنهم أصحاب عقول تقف عند حدود المنطق ، يجنحون إلى ضرب من ضروب الغيبية الواضحة .

والكلام فى مسألة الدعاية عن غير وعى على النحو الذى أسلفناه يجرنا

بالضرورة إلى المسألة الثانية وهى مسألة الرقابة ، إذ من الملاحظ أن التعبير الحر من الأفكار كان عبر التاريخ شيئا بالغ الندرة ، ولا يزال كذلك ، وإن هذا التعبير الحر لم يكن بأى حال مرادفا للموضوعية التى يدعيها الكثيرون ولا يلتزمها أحد . إذ من الواضح أنه لم يكن من المتاح فى ظل ما يسمى بالنظام القديم ، فى تاريخ الإنسان أن يعبر أحد عن رأيه خارج نطاق معين أو خلفية معينة ترتبط بالسلطة والسلطان وأنه عندما سادت أنساق أفكار معينة فى فترات معينة كانت الحقيقة فى نظر الناس هى تلك التى تطرحها هذه الأنساق ، خاصة وأن عملية الطرح هذه ، أو الدعاية إن شئت، كان يقوم بها المتعلمون أو الصفوة المسيطرة فى مجالات السلطة بالمعنى المعتقدى أو السياسى . ونستطيع أن نقرأ ذلك كله فى جلاء فى صفحة التاريخ القديم والوسيط على قصور آداته، وأن نستشفه فى عناء من صفحة التاريخ الحديث على تقدم أساليبه . وتبقى الآصرة التى تربط ما بين الإنسان والجهالة صديقته القديمة هى من حيث القوة والقدرة على وضع القيود على العقول، على نحو لا زال يظهر ويدل على أن الحقيقة بالنسبة للجماهير تنبع من السلطة ولا ترتبط إلا فى القليل بما يقيم وعيهم الدليل عليه أو بما ينتهى إليه التفكير المستقل . وعلى هذا فقد مورست ضروب الرقابة المختلفة فى القديم والحديث مع إختلاف فى الحجة والتبرير، وكلنا يعرف أنه قد قضى على سقراط بأن يموت بالسم لإتهامه بإفساد الناشئة ، بينما كان يحاول فى حقيقة الأمر أن يعلمهم كيف يفكرون ويستقلون بآرائهم .

ويتضح من هذا أن الدعاية ترتبط إرتباطا وثيقا بأشكال الرقابة التى تحاول الا تفسح أى مجال لظهور أفكار بعينها أو القضاء عليها لصالح أفكار أخرى تقوم عليها أو تتبناها السلطة المهيمنة.(١)

---

(١) أنظر فى محاولة السلطة أو النظام الدفاع عن نفسه عن طريق الدعاية : —

وكلامنا هذا، مع دلالته على غيبة التدفق الحر للأفكار لا ينطوى بالضرورة على معانى الجور فى جانب السلطة أو معانى الفساد فى جانب الأفكار. وإنما هو إشارة لصراع القوى الداخلة فى تركيب المحصلة التى نسميها بالقوة السياسية، إزاء بعضها البعض فى النطاق الواحد وبين المحصلات المختلفة فى النطاقات المختلفة، أما الجور والفساد فيقاسان بمعايير أخرى.

وإذا كانت الدعاية ترتبط كما بينا بحظر نشر بعض المعلومات عن طريق فرض رقابة، فإن ذلك لا يعنى أن مثل هذا الحظر يرتبط دائماً بالدعاية كما هى الحال فيما نلاحظه فى تاريخ الإنسان من إنغلاق بعض الطبقات والأنظمة الكهنوتية ومحاولتها حجب أسرارها عن العامة الذين قد يضارون — فى رأى أصحاب الكهانة — إذا أتيح لهم أن يطلعوا على ما لا يستطيعون فهمه. ومن ناحية أخرى فإن الدول جميعها تحتفظ فى العادة بأسرار معينة تحول دون تسربها حفاظاً على مصالحها القومية. بيد أن هذه الوصاية الفكرية التى يفرضها الكهنوت من ناحية أو الرقابة على الأسرار القومية من ناحية أخرى، كثيراً ما يساء إستخدامها على نحو لا تتأدى معه الأغراض المعلنة التى تبرر إتباعهما.

وهذا الذى نقول إنطبق وينطبق على ما ساد المجتمعات البشرية منذ عهودها الأولى، ولا عبرة فى ذلك لما طرأ على هذه المجتمعات من إختلاف فى أبنيتها الإجتماعية السياسية، فإن رجعنا إلى وراء وألقينا نظرة على مصر القديمة وبابل وآشور نلاحظ صدق ما نقول، وإذا تقدمنا إلى أمام حتى قرننا العشرين فإننا

= G. Mosca, The Ruling Class, U. S. A. McGrow - Hill, 1939, PP. 315 - 319.

لا نعدم كهانات الكهان واستغراق الأجهزة الإنفصالية للدول فى عمليات توعية لا تعد وأن تكون تعمية .

الدعاية عن طريق الرقابة

يتبين مما سبق أن « الدعاية » ، تتم فى العموم بأحدى طريقتين ، إما بنشر المعلومات أو بحجبها جزئياً أو كلياً . وهذا الحجب يتم من خلال العمليات الرقابية المتنوعة ، وتتمثل هذه العمليات الرقابية فى إتجاهين أساسيين ، أولهما ما يسمى بالضبط الإنتقائى للمعلومات الذى يترتب عليه طرح وتعزيز وجهة نظر معينة ، وثانيهما التلفيق المتعمد للمعلومات على نحو يكفل إحداث إنطباع يغاير القصد الأصلى منها .

ويتمثل الضبط الإنتقائى للمعلومات ، فيما سبق الإشارة إليه عن قائمة حظر الكتب Index librorum Prohibitorum الشهيرة التى ترجع إلى القرن السادس عشر والتى تشمل كل الكتب التى ترى لجنة القائمة ، أنها تشكل خطراً على المعتقد الروحى الكاثوليكى والتى تضم كتباً تعد من معالم الطريق فى تطور الفكر الإنسانى . وبعض هذه الكتب وضع فى هذه القائمة ثم أزيل الحظر عنه بعد ذلك جرياً على مقتضيات الضرورة بيد أنه قدر لكتب كثيرة لعدد كبير من أعلام الفكر الغربى وغيرهم أن تضاف إلى هذه القائمة دون رجعة ، وأصبح من المتعين على أى كاثوليكى ألا يقرأها . وغنى عن البيان أنه قد يسمح أى إنسان أن يزعم أن فلسفات « كانت وهيوم » ، على سبيل المثال لا تعدو أن تكون مجرد هراء ، ولكنه لا يستطيع أن يدعى بأى حال أنه يلم بالفلسفة أو تاريخها دون أن يعرف شيئاً عن هذه الفلسفات .

كما يتمثل التلفيق المتعمد ، فيما يلاحظ فى القديم والحديث من أن أصحاب

الإيديولوجية أو السياسة يعمدون فى عرضهم الأفكار أو الآراء أو مواقف خصومهم ومعارضيهم إلى حجب بعض الحقائق أو الأمور بحيث يتركون لدى الناس إنطباعات تخالف تلك التى يستهدفها هؤلاء الخصوم أو المعارضون .

وهذان الإتجاهان السائدان فى مجال الدعاية بواسطة الرقابة يتبعان فى كل المجالات المرتبطة بالنشاط والصراع الدائر فى مجتمع الإنسان ، وإن كان عرضنا يجنح دائماً إلى تناول الأمور فى منظورها الحضارى الشامل ، فإنه ينبغى أن نلفت النظر إلى أن ما يصدق على البناءات النوعية فى المجتمعات يصدق أيضاً على الأفراد كأفراد، ولعل ذلك لا يغيب عن بديهة القارىء ، على أن يربط بين ذلك كله — من حيث الأثر — وبين ما طرأ ويطرأ على الإتصال وقنواته ووسائله من تطور جسيم عبر القرون .

ولئن كنا قد فضلنا فى تناولنا للكلمة المطبوعة أن نبدأ بالكتاب لسبقه التاريخى ولبقاء أثره . فإننا ينبغى أن نثنى بالكلام عن الكلمة المطبوعة كصحيفة وليس لنا فى هذا المجال أن نتتبع تطور الصحافة ونشأتها لأن هذا التطور سلك دروباً مختلفة إلى حد كبير فى المجتمعات المختلفة بصرف النظر عن السمات المشتركة التى تميز هذه الوسيلة الإتصالية الهامة والمتداخلة مع وسائل الإتصال الأخرى فى عصرنا الحاضر. ولكن الذى يعنينا على وجه العموم هو أن الصحافة التى بدأت ضيقة النطاق والأثر إتسعت مجالاتها الآن على نحو يجعلها تلعب أدوارا بالغة الأهمية فى الدعاية وصياغة الرأى العام على المستويات المحلية والقومية والدولية فى شتى مجالات النشاط الإنسانى الواسع . ويعنينا فى هذا السياق أن نشير إلى الضوابط التى تفرض على ما تتناوله الصحف بأنواعها المختلفة . والضابط القديم الجديد يتمثل فى الرقابة التى تفرضها النظم المهيمنة من ناحية والضوابط التى تفرضها ضرورات الإعلان أو الدعاية التجارية من ناحية أخرى. فالمعلنون

يهتمون عادة بشراء مساحات فى الصحف ويهمهم أن تكون هذه الصحف واسعة الإنتشار. وقد لا يتأتى للصحيفة السيارة التى لا تستند فى الأساس إلى مؤازرة إيديولوجية معينة ، أن تكون واسعة الإنتشار مالم تحاول تحقيق نوعاً من الحيدة النسبية التى تسوغها لدى القراء على إختلاف مشاربهم وإنتماءاتهم ، مما يحدونا إلى تأمل أثر الدعاية التجارية فى الحيدة الفكرية النسبية لبعض الصحف واسعة الإنتشار. ولنا أن نلاحظ أنه كلما إتسع نطاق توزيع الصحيفة المعينة بحيث تشمل النطاق القومى وتتعداه إلى ما خارجه ، كلما إزدادت الحيدة النسبية لهذه الصحيفة. ولكننا نلاحظ فى الوقت نفسه أن هذه الصحف قد تربط نفسها بمصالح المعلنين تبعاً لقوتهم ونفوذهم على نحو يجيز هذه الصحف نسبياً إلى إتجاه أو آخر أو الى إيديولوجية أو أخرى. والصحافة كظاهرة على وجه العموم ترتبط فى الأساس بالسياق الحضارى الذى تنبع منه وتمثله .

تعريف الدعاية

يظهر العرض السابق أن الدعاية لها سمات وترتبط بعناصر غير تلك التى يستطيع المرء أن يخرج بها من التعريف القاموسى لها الذى أوردناه فى مستهل هذا الفصل. وعلينا لذلك أن نلقى نظرة على بعض التعريفات الأخرى للدعاية التى وضعها بعض الباحثين فى علم النفس الإجتماعى الذين إهتموا بتناولها تناولا علمياً. فالباحث الامريكى Kimball Young يعرف الدعاية على أنها : «... هى إستخدام الرموز على نحو متعمد، منظم ومخطط، من خلال الإيحاء أساساً وما يتصل به من تكنيكات نفسية ، بقصد تغيير وضبط الآراء والأفكار والقيم وتغيير الأفعال الظاهرة فى نهاية الأمر عبر خطوط حددت سلفاً . وقد تكون الدعاية واضحة والقصد منها معلناً أو قد تستخفى بمقاصدها . وهى تقع دائماً

فى نطاق إجتماعى ثقافى لا يمكن بدونه أن تفهم ملامحها النفسية أو الثقافية»(١).

أما الباحث Leonard W. Doob فيعرف الدعاية على أنها «هى المحاولة المنظمة التى يقوم بها فرد أو أفراد ذووا مصلحة لضبط مواقف بمجموعات من الأفراد باستخدام الإيحاء(٢) وبالتالى ضبط أفعالهم» (٣).

ثم يعرفها بعد ذلك متناولا مضمونها على أنها: «هى محاولة التأثير فى الشخصيات وضبط سلوك الأفراد فى إتجاه غايات تعتبر غير علمية أو مشكوك فى قيمتها فى مجتمع ما فى فترة معينة». والتعريف على هذا النحو يبدو غير كاف، إذ من هو الذى سيقرر ماهية الشىء الذى يشك فى قيمته فى وقت معين، والواضح أن المجتمع نفسه هو الذى يفصل فى ذلك، إذ أن «دوب» يستطرد قائلا: «... إن نشر وجهة نظر يعتبرها البعض سيئة أو غير عادلة أو قبيحة أو غير ضرورية هو دعاية بمعايير هذا البعض»(٤).

وإن كان مثل هذا التعريف يعرض مفهوما من مفاهيم الدعاية كما يراها البعض إلا أنه من الواضح أنه لا يستوفى كل جوانبها، فإذا ما إستحضرنا فى الذاكرة حملات الدعاية التى تستهدف غايات فيها صالح المجتمع، وكذلك الأشكال المختلفة التى تأخذها الدعاية نجد أن هذا التعريف لا يوفى على الغاية.

أما القول بأن الدعاية تتم فى نطاق إجتماعى ثقافى يربط فيما يبدو بين الدعاية

---

(١) أنظر الملحق السادس (a) فى الملاحق الانجليزية.

(٢) لما كان الايحاء وما يرتبط به من أهم ميكانيزمات الدعاية رأينا أن نورد نصاً منفصلا له، أنظر الملحق السابع فى الملاحق الانجليزية.

(٣) أنظر الملحق السادس (b) فى الملاحق الانجليزية.

(٤) أنظر الملحق السادس (c) فى الملاحق الانجليزية.

والتعليم . وسبق أن بينا أن المادة المطروحة لا يكون غرضها من قبيل التعليم إلا إذا كانت تطرح وحدها دون بديل لها ، أما إذا كان القصد من طرحها إزاغة بديل أو بدائل لها فإن عرضها يكون من قبيل الدعاية والكلام عن الشيء الواحد يمكن أن يكون تعليما فى حين ، ثم يصبح بعد ذلك دعاية . ومثال ذلك أنه عندما تسود نظرية معينة فى وقت معين فإن محاولة نشرها بين الناس تكون من قبيل التعليم طالما أنه ليس هناك بديلا لها ؛ فإذا ما أتت الأيام بنظرية أخرى تغايرها فإن عرض هذه النظرية الجديدة يجعل الكلام عن كلتا النظريتين من قبيل الدعاية .

والتفرقة بين التعليم والدعاية(١) فى هذا المجال قد تكون أمراً ميسوراً ، إذ أن التعليم يستهدف خلق القدرة على الحكم المتجرد ، بينما تقدم الدعاية لهؤلاء الذين لا يعملون تفكيرهم أحكاما أو آراء أعدت سلفا . وبينما يحاول المربى أن يطور فى المتلقى قدراته التى يستطيع بها الحكم على الأشياء وقد يستغرق ذلك وقتاً طويلا ، فإن الذى يقوم بالدعاية يستهدف تحقيق نتائج عاجلة ، فالمربى إذن يعلم الناس كيف يفكرون ، أما الداعية فيطرح عليهم ما ينبغى من وجهة نظره أن يفكروا فيه . فمهمة الأول هى خلق المسئولية الشخصية والعقل المتفتح ، ومهمة الثانى هى محاولة جعل العقل ينغلق من خلال أساليب الدعاية التى تسمى بالتأثيرات الجماعية وينبغى لنا أن نشير إلى أن التفرقة بين التعليم والدعاية ليست ميسورة فى كل حال إذا أخذنا فى الإعتبار المناهج والمواد والفروع المختلفة التى تقوم عليها العملية التعليمية فى الأنساق الإجتماعية المتباينة :

---

(١) أنظر تعريف مقتضب للدعاية فى :

C. Wright Mills, The Sociological Imagination, Harmondsworth, Pelican Books, 1977, P. 212.

ويتضح من ذلك كله أن حرية الإختيار لا يمكن أن تتأتى للمتلقى إلا إذا عرض عليه الشىء المعين وكل بدائله واستطاع أن يستوعبهـا جميعا ويقيمها ثم يختار . ولما كانت السمة البارزة فى الدعاية، أيا كانت هى أن تحد هذا الإختيار فى نطاق معين أو لصالح شىء معين من خلال الوسائل الدعائية المختلفة ، النفسى منها وغير النفسى ، فإنه قد يحق للبعض من ناحية أن يحس أن الدعاية تحاول التأثير فيه بوسائل ملتوية لا تلتزم جانب ما هو صحيح دائما ، ويحق لنا من ناحية أخرى أن نقول أنه سواء أكانت المادة المطروحة صادقة أو غير صادقة ، وسواء أكان الداعية مخلصاً أو غير مخلص وسواء حسنت أهدافه أو ساءت فإن ذلك كله ليس الفيصل فى تعريف الدعاية . ولكن الشىء الذى يجعل السلوك دعائياً هو الطريقة التى تعرض بها المادة ، وأن هذه الطريقة فى حد ذاتها لها أهمية المضمون .

وتوظف الدعاية بالمعنى الشامل وما يرتبط بها من عمليات إتصالية فى النسق الإجتماعى السياسى المعـاصر على نحو يعبر عن الصراع والخلل أو التوازن فى علاقات القوة التى تضفى على النسق صورته الكلية فى أحوال الثبات والتغير أو التحول . وإتصال هذه الوظيفة أو الوظائف ببناء القوة فى المجتمع يجعلها بالغة الأثر فى خلق الأطر العقلية المهيأة لتلقى أفكار بعينها تشكل رأيا أو آراء عامة إزاء كل ما يرتبط بنشاط الإنسان وتفاعل هذا النشاط داخل النسق الواحد الذى يلتزم بسياسات تستلهم إيديولوجية معينة .

ويرى بعض الباحثين أن الدعاية بهذا المعنى لا يمكن أن تكون كاملة القدرة من الناحية السيكولوجية على إحداث الأثر لإرتباط الفرد والجماعة بتراث وخلقية يشكلان جزءاً أساسياً فى تكوينه أو تكوينها . لكننا نميل ـ بالنظر إلى واقع التاريخ المعاصر وأنساقة السوسيوسياسية ـ إلى أن نختلف مع هؤلاء

الباحثين ، فالإيديولوجيات المعاصرة فى صراعها من أجل البقاء وإزاغة ماسواها توشك أن تحيل الإنسان إلى كائن منبت الصلة بتراثه ، وأقرب شاهد على ذلك هو أن التفرقة بين التعليم والدعاية التى أشرنا إليها سلفاً توشك أن تصبح مستحيلة فى ظل الهيمنة السياسية على نحو أحال فروع العلم ، بما فيها المعملى والبيولوجى إلى مدارس ذات صبغات إيديولوجية . والزعم بأن التعليم والدعاية لا يترادفان إلا فى الأنساق الشمولية حيث يطرح معتقد واحد ، يرد عليه فى بساطة بأن الديمقراطيات فى محاولة تصديها للإيديولوجيات التى تصفها بالشمولية صبغت هى الأخرى فروع العلم فيها بصبغات إيديولوجية .

والعملية التعليمية هى ولا شك واحدة من أهم العمليات الإتصالية . وأبلغها أثرا فى تهيئة الأجيال القادمة التى ستتولى إدارة شئون المجتمع . ولقد بينا ما يكتنف هذه العملية التعليمية فى قرننا العشرين من هيمنة أصحاب السلطان أو أصحاب الإيديولوجية . ولا يقف الأمر عند هذا الحد ولكننا نلاحظ أن هذه العملية التعليمية التى كانت تتجه فيما مضى إلى خلق الشخصية ذات القدرة المستقلة على الحكم على الأشياء ، أصبحت تتجه على وجه العموم فى الوقت الراهن إلى خلق فئات من المهنيين القادرين على الإسهام فى إدارة عملية الإقتصاد الذى أصبح وثيق الصلة بالإيديولوجية . وأوشك الإنسان الحديث أن يحرم بالفعل من مقومات ما يمكن أن نسميه بالثقافة على نحو يحيله إلى مجرد آداة من الأدوات المستقلة فى وسائل الإنتاج لا للوفاء باحتياجاته وإشباعها على النحو الذى يكفل سلامته النفسية وصحته العقلية ، بل على نحو يفى فى المقام الأول بمصالح الصفوات الحاكمة التى أصبحت من القوة بحيث لا يمكن أن يحال بينها وبين إستخدام وسائل الإتصال إستخداما أوشك أن يخل بكل معايير ما هو صادق أو صحيح . وقد ترتب على ذلك من الناحية السيكلوجية الكثير

من الآثار التى تلاحظ فيما يعانيه إنسان العصر من هم وقلق وإغتراب .

وإذا تركنا التعليم لنلقى نظرة عامة على أثر وسائل الإتصال الجماهيرى التى سبق أن أجملنا الإشارة إليها فى فصل سابق ، فالملاحظ أن إنسان العصر أصبح محكوما تماما بما تمليه عليه هذه الوسائل فى كل جوانب حياته وما يتعلق بها من إختيارات . وليس ثمة داع للتدليل على ذلك بالتمثيل إذ كلنا يحيا تجارب هذا العصر والنظرة العابرة فى أى إتجاه تكفى لبيان ذلك .

ولقد تأثرت اشكال الفن المختلفة بذلك كله ، فنراها وقد إبتذلت على نحو أو آخر فى العمليات الدعائية المستمرة التى تفيض بها وسائل الإتصال الجماهيرى المختلفة . وبدأت الكلمة والنغمة والصورة تفقد معانيها والقصد الجمالى منها فى هذا التوظيف الدعائى لها ولا يعنينا فى هذا السياق أن نتناول ذلك كله بالشرح والتفصيل .

وخلاصة القول فيما يتعلق بالدعاية أو الدعوة هى أن الإنسان قد أصبح فى العصر الحاضر تحت الهيمنة الكاملة لصفوات القوة فى المجتمع سواء وصفت هذه الصفوات بأنها سياسية أو إقتصادية أو عسكرية أو فكرية من دينية وغير دينية ، بمعنى ان كل هذه الصفوات تستهدف من خلال الدعاية تغيير مواقف الأفراد والجماعات أو التأثير فيها على نحو يتوخى تحقيق أهداف أو مصالح هذه الصفوات ، وإن محاولة ضبط هذه المواقف تتخذ أشكالا خفية وظاهرة .

الفصل السابع

تشكيل المواقف وتغييرها

- المواقف الأولية
- الآراء والمواقف وخصائص الشخصية
- تغيير المواقف
- الدعاية الحربية والحرب النفسية
- الدعاية السياسية

إنتهينا فى الفصل السابق إلى أن الصفـوات الحاكمة التى تستحوذ على القـوة الحقيقية فى النسق الإجتماعى السياسى تستهدف ضبط مواقف الفرد والجماعة عن طريق عمليات الإتصال بقصد تحقيق التوازن فى علاقات القوة فى المجتمع أو المحافظة عليها .

ولما كان الفرد هو الوحدة الأساسية فى التفاعل الإجتماعى والمجتمعى ، فإن مواقفه ترتبط عادة بمحاولته إشباع حاجاته المباشرة على شتى المستويات من ناحية، وبالخلفية العامة التى يكتسبها نتيجة لإنتمائه إلى بيئة معينة وتراث معين ومحاولة تكيفه مع هذه البيئة وإلتزامه بأنماط القيم السائدة فى تراثه من ناحية أخـرى . وإذا كانت الحال كذلك فهل يمكن حقا ضبط مواقف الأفراد بالتأثير فيها أو تغييرها إلى حد بعيد على نحو أو آخر ؟

علينا أن نحاول فى أول الأمر أن نعرف ماذا نعنى بكلمة «موقف Attitude» ولنبدأ بالتعريف الذى أورده قاموس أكسفورد الذى يعرف الموقف ، ضمن معان أخرى بأنه : « سلوك ثابت يدل على الرأى ؛ ثم يعرف الموقف العقلى على أنه طريقة التفكير الثابتة .(١) وهذا التعريف لا يبعد كثيرا عما يرد تلقائيا فى أذهاننا عندما نفكر فى مضمون هذه الكلمة التى يعرفها الباحثون فى علم النفس

---

(١) Attitude : ... settled behaviour, as indicating opinion; attitude of mind ; settled mode of thinking.

الإجتماعى على أنها: حالة إستعداد عقلية أو عصبية تتهيأ من خلال الخبرة، ويكون لها أثر توجيهى أو دينامى على إستجابة الفرد للأشياء والأحوال التى ترتبط بها ؛ أو أنها الميل إلى الإتفاق أو الإختلاف مع عامل بيئى يصبح تبعاً لذلك قيمة إيجابية أو سلبية ؛ أو أنها مجمل ما ينشأ إجتماعيا فى الإنسان .

والواقع أن هذه التعريفات جميعها توشك أن تشير إلى مضمون واحد مؤداه أننا فى إستجاباتنا للأحوال والأشياء التى نلقاها فى حياتنا اليومية نتـأثر بآراء وقيم نكون قد تبنيناها أو إكتسبناها سلفا من الخبرات التى مررنا بها من قبل ، وأن هذه الخبرات تتصل بكل جوانب حياتنا كأفراد يعيشون ويتفاعلون فى بيئة معينة لها تراثها وخلفياتها . والكلام عن التراث أو الخلفية يأتى بنا إلى مجمـوعة متنوعة من المقومات التى لبعضها صفات الثبات والتواتر وللبعض الآخر صفات التغير والتفاعل الإيجـابى أو السلبى مع ما تأتى به الأيام من خـبرات يلعب فيهـا إتصال الإنسان بالإنسان ومحـاولات التحيز والتحييد أدوارا بالغة الأهميـة ، وقد لا يكون التراث مرتبطا ببيئة معينة بقدر إرتباطه ببيئة الإنسان، وقد يكون على النقيض من ذلك . ونمثل للحالة الأولى بالموقف الذى تأخذه الآداب العالمية على سبيل المثال من اليهودى ، وإرتباطه فى أذهان الناس على إختـلاف بيئاتهم وإرتباطه بسلوك إقتصادى معين شكل دائما عاملا سلبيا فى مواقف الناس إزاء اليهود(١) . ونمثل للحالة الثانية بالفارق فى رد الفعل الذى تحـدثه كلمـة زنجى لدى مواطن يعيش فى جنوب الولايات المتحدة الأمريكية وآخر يعيش فى شمالها . ويتبين من هذا أن الموقف يمثل ضربا من ضروب الإنحياز بصرف النظر

---

(١) أنظر على سبيل المثال : مسرحية تاجر البندقية لوليم شكسبير، ورواية أليفر توست لتشارلز ديكنز .

عن سلبيته أو إيجابيته، أو عن دلالته على ما هو غير صحيح أو صحيح. ولاشك في أن لكل منا مواقفا إزاء ما يحيط به من الأشياء والأحوال على إختلافها، وأن هذه المواقف قد تكون ودية أو غير ودية، وقد تعكس هوانا ومصلحتنا أو تعكس تجردنا. وقد تعيننا على الفهم أو تنأى بنا عنه. كما أنها ترتبط كما ألمحنا بسياقات الزمان والمكان على النحو الذى يتبين من ردود الفعل المختلفة لدى الأفراد المختلفين إزاء مفاهيم مثل الرأسمالية والشيوعية والليبرالية والشمولية والمساواة والتفرقة العنصرية ومضادات السامية واليهودى والزنجى ومنع الحمل والدعارة والجنسية المثلية وما إلى ذلك. ومعنى ذلك أن هذه المفاهيم أو الكيانات تثير فينا مشاعر معينة تجعلنا نفكر أو نتصرف بطريقة بعينها ويتمثل فى هذه الطريقة الموقف الذى نتخذه وهذا الموقف يتمثل لدى الفرد فى إستجابة ترتبط فى خبراته بالثواب والعقاب أو بما يرضى أو لا يرضى أو بالنجاح أو الفشل. وقد لا ترتبط هذه الإستجابة بخبرات الفرد بقدر ما ترتبط بما هو سائد، من حيث التراث أو غيره، فى مجتمع معين. ففى البلدان التى ينظر فيها — على سبيل المثال — إلى الزنوج على أنهم جنس أدنى لا تتشكل إستجابة الفرد إزاء الزنوج على أساس من صلة هذا الفرد لهؤلاء الزنوج بقدر ما تعكس — الإستجابة — ما هو سائد فى المجتمع بعامة إزاءهم. وهذا يوضح كيف أن الموقف يعبر عن إستجابة ترتبط بالخبرة الفردية أو المجتمعية أو عن كلتيهما معا.

وهذه التفرقة تعين الباحثين فى الإتصال على تبين الجوانب التى يسهل فيها ضبط المواقف بإعادة التشكيل أو التغيير. ويمكننا أن نلحظ عملية تكوين أو تشكيل المواقف فى مراحلها الأولى، وأثر القيم السائدة فى المجتمع فى ذلك من قصة بسيطة كانت تتكرر فى مصر ما قبل الثورة، حيث كان المنتمون إلى طبقة الإقطاعيين لا يفوتهم أن يذكروا أولادهم بين الحين والحين بالفوارق

التى تفصل بينهم وبين « أبناء الفلاحين» على سبيل المثال ، فما يكاد الطفل الصغير يتعامل مع أقرانه من أبناء الفلاحين بفطرة الطفولة المنطلقة حتى يزجره والده أو والدته وينهياه عن ذلك ، ومن هنا يبدأ تشكيل موقف معين. والنظرة المهينة التى كانت سائدة ، وربما لم تزل ، بين المثقفين إزاء العمل اليدوى ، مثال آخر على ذلك .

وليس من الغريب أن نلاحظ فى خبراتنا الشخصية أن المواقف التى تتشكل على هذا النحو ، والقيم التى ترتبط بها لا يسهل تغييرها فيما بعد بالرغم من إضافة خبرات أخرى إليها ومرور الفرد بمراحل تعليمية يفترض أنها تعينه على التخلص من الإنحياز ، إذ يعلل لذلك سيكلوجيا(١) . وبالرغم من أن الباحث فى علم النفس الإجتماعى يولى إهتمامه عادة للمواقف التى يتخذها الأفراد والجماعات محاولا الكشف عن مصادرها وتتبع الآثار التى قد ترتب عليها ، دون أن يصرف همه إلى تناول الكيفية التى تنشأ بها هذه المواقف داخل الفرد ، إذ أن ذلك يقع فى نطاق مجالات فروع أخرى لعلم النفس . بيد أن الإهتمام بدراسة كيفية تكوين هذه المواقف داخل الفرد بدأ يكتسب فى الآونة الأخيرة أهمية متزايدة بالنظر إلى أن العاملين فى صناعة الرأى يستهدفون كما أسلفنا التأثير فى هذه المواقف أو تغييرها ، فلا بد لهم إذن من فهم متكامل لطبيعتها حتى يلموا بالأسباب التى تحدو بالأفراد إلى تبنى مواقف معينة ، ويستخلصوا السبل التى تعينهم على هذا التأثير أو التغيير .

---

(١) أنظـر : Ransom J. Arthur, an Introduction to social Psychiatry, Harmondsworth, Penguin Books, 1971; George A. Miller, Psychology, Harmondsworth, Pelican Books, 1970.

المواقف الأولية

وتتأثر مواقف الفرد على الإجمال بالخبرات التى يكتسبها فى سن الطفولة الأولى من خلال علاقته بأبيه وأمه ، وبالخبرات التى يكتسبها ممن يحيطون به فى تلك السن وما يضاف إليها بعد ذلك على إمتداد حياته من تجارب قد تتشابه أو تتباين مع بعضها البعض .

وإذا كان الباحثون فى علم النفس يضفون أهمية بالغة على الخبرات التى يكتسبها الطفل فى سن عمره الأولى على أساس أنها تشكل مواقفاً قد تؤثر أو تتحكم فى المواقف التى يتخذها بعد ذلك فى مراحل نموه المختلفة ، فإننا نرى أن هذه المواقف المبكرة ذات أهمية قصوى من الناحية الإيديولوجية . ذلك أن الخبرات العادية التى يكتسبها الطفل يسهل تغييرها بعد ذلك إذا إرتبط هذا التغيير بتحقيق قدر أكبر من المصلحة أو المنفعة أو بأية قيمة تثبت إيجابيتها من خلال تفاعل الفرد مباشرة مع بيئته . ومعنى ذلك أن التأثير الثقافى الإجتماعى المباشر قد يستطيع أن يزيغ الأثر الثقافى الإجتماعى الذى إكتسبه الفرد بالوساطة فى سنوات عمره الأولى . أما فيما يتعلق بالناحية المعتقديه ، فإن هذه الإزاغة قد تعسر أو تستحيل نتيجة للممارسات التى يمر بها الفرد والقيم التى يكتسبها خلال فترة تلقيه بالوساطة . وهذه الحقيقة هى التى تكسب بعض التعاليم أو المعتقدات ، وإن شئت قل الشعوذات ، عناداً لا يتأتى لإكتساب الخبرات بعد ذلك أن يتعامل معه فى يسر . وتلك هى مشكلة المشكلات التى يتعين على مروضى العقول أن يجابهوها وهذا يفسر ، بصرف النظر عما يستقيم فى أمور المعتقدات ، كيف أن الكثيرين ممن أتيح لهم أن يصلوا إلى أعلى مراتب العلم أو التعليم لا يستطيعون أن يتخلصوا من الإرتباط بممارسات السحر أو الشعوذة أو محاولة معرفة الغيب على النحو الذى لا نلحظه فى حياتنا اليومية

وحسب ، وإنما نسمع عنه فى بعض الشخصيات التى يتاح لها مكان الصدارة فى صفوف القمة الحاكمة فى عالمنا المعاصر، ومايقال عن وقوامى نكروما . وأمثاله فى هذا الصدد معروف لنا جميعا .

ويستخلص من ذلك أن نوع الثقافة الذى يتاح للفرد ذو أهمية بالغة فى بناء شخصيته . ونظرا لأن الثقافات تختلف بإختلاف البيئات والأصول ، فإن القيم التى تسود فى مجتمع معين أو بين جماعة معينة والتى يضفى عليها قداسة أو أهمية قد لا تعنى شيئاً فى نظر الأفراد الذين يعيشون فى مجتمع آخر . ويترتب على ذلك ما سبق أن أسلفنا ذكره من أن العمليات الإتصالية التى تستهدف تغيير المواقف أو المعتقدات أو صياغة الرأى العام تعمد فى كثير من الأحايين إلى الإستخفاء ببعض مقوماتها أو ما تنطوى عليه حتى يتسنى لها أن تحدث الأثر المطلوب ، مما يحيل الكثير من عمليات الإتصال إلى ضروب من التعمية والتجهيل .

الارآء والمواقف وخصائص الشخصية

ويحسن بنا بعد ذلك أن نفرق بين أشياء ثلاثة هى : الآراء والمواقف وخصائص الشخصية . فالآراء يتبناها الأفراد لفترات قصيرة فى الغالب وتعكس الشعور العام السائد . وكثيرا ما تعكس هذه الآراء ما قد يرى الفرد أنه ينبغى عليه أن يتوخاه وليس ما يتوخاه بالفعل ، ولذلك فإن الآراء قد تستجيب للتغيير متأثرة بالدعاية أو بالمنطق . أما المواقف فتتخذ لفترات قد تطول ، ولا تعكس بالضرورة أو فى كل حال الشعور العام السائد بالرغم من أنها قد تعكس مشاعر الفئة أو الجماعة التى ينتمى اليها الفرد . وتمتد جذور هذه المواقف عادة إلى خصائص الشخصية التى تجعل الفرد يستجيب أو لا يستجيب إلا للمحرضات التى تتسق مع معتقداته الأصلية ، من بين المحرضات الكثيرة التى تؤثر فى حواسه .

ومن الممكن تغيير هذه المواقف ، ولا ينطوى هذا التغيير على قيمة حقيقية إلا بالمعنى الإجتماعى ، أى أنه يجنح فى العادة إلى تغيير السلوك الظاهرى بصرف النظر عن تأثير ذلك على الخصائص عميقة الجذور فى تكوين الشخصية .

فالإنتقال من نظام سياسى إلى نظام سياسى آخر ـ على سبيل المثال ـ قد يجعل الفرد يتسق من حيث السلوك الإجتماعى ، أو المواقف ، مع مقتضيات النظام السياسى الجديد بصرف النظر عن المقومات الأساسية لشخصية الفرد، إلا ما يتفق منها مع إعتبارات المصلحة أو توخى أسباب الأمان على نحو قد يعين على تحقيق التوازن النفسى أو يفسح المجال للإغتراب(١) .

وهذه الحقيقة تكتسب أبعاداً أخرى فى حالة الإقتناع الفكرى ، فقد تكون بالغة الأثر فى تغيير المواقف ، لا من حيث المدلول الإجتماعى الظاهر وحسب ، بل من حيث بناء الشخصية أيضا ـ وإن إختلف معنا بعض علماء النفس ـ ، وهذا لا يعنى بأى حال أن الأفراد سيتطابقون تماما من حيث السلوك الإجتماعى من ناحية أو من حيث سمات الشخصية من ناحية أخرى ، فالفوارق فى هذا الشق الأخير بالذات ستبقى وتتعدد ما بقى الناس وتعددوا .

ولئن شئنا أن نمثل لأثر المعتقد فى جعل الفرد يتسق إجتماعيا وسياسيا مع معتقد جديد، وفى التأثير على كيانه ووجدانه بحيث لا تبقى إلا تلك المقومات والسمات التى تشكل الفارق بين شخصية وأخرى ، فإننا نستحضر فى الذهن الصورة التى كان عليها « الفاروق عمر » ، قبل إسلامه وبعد أن تعلم فى المدرسة المحمدية ، وقدر له أن يكون علامة من أبرز علامات الفكر والقيادة فى تاريخ الإنسان (٢)

(١) أنظر : نظرية القوة ، صفحات ٢٨ ـ ٣١ و ٢٧٨ .
(٢) أنظر : عباس محمود العقاد ، عبقرية عمر .

وتزداد الصورة وضوحا فيما يتعلق بالمقومات التى تشكل الفارق بين شخصية وأخرى، إذا ما قارنا بين شخصية «أبى بكر» وشخصية «عمر»، وكل منهما هو من هو، وله مكانه ومكانته فى المدرسة المحمدية الواحدة وفى تاريخ الإسلام والعالم، على ما بينهما وبين الآخرين من قادة العالم طلاب القوة على العموم (١) من فوارق جسام .

وينتهى هذا بنا إلى أن عناصر القوة ، وخاصة ما يرتبط منها، بالإيديولوجية تتكامل بالإنسان وفى الإنسان ، وتؤتى أكلها إذا إستقام أمره وغلب هواه ، وصح عزمه وحسن مرماه .

تغيير المواقف

حاولنا فيما سبق أن نبين الفوارق بين الآراء والمواقف ، لنقول بعد ذلك إن المواقف على الإجمال تتدرج من التعبير العارض عن رأى معين إلى مجموعة من المواقف تتداخل بحيث تشكل مفهوما عاما يسود فى مجتمع من المجتمعات أو بين جماعة من الجماعات . ونلحظ التعبير العارض عن الرأى فى أبسط صورة عندما نبدى إعجابنا بشىء ما، وقد لا يتكرر هذا التعبير عن الإعجاب أو تتباعد فتراته فلا نبديه إلا عندما نلتقى هذا الشىء مرة ثانية وهكذا دواليك. وقد ترتبط فى ممارستنا لحياتنا اليومية بشىء أو آخر ، بحيث نطلبه دائما إذا كان سلعة ، على سبيل المثال، من تلك السلع التى نعتاد إستهلاكها ونرتبط بها لسبب أو لآخر، وفى هذه الحالة يكون سلوكنا تعبيرا عن موقف بسيط ، وهذا التعبير يتكرر

---

(١) أنظر : طه حسين ، الشيخان ، دار المعارف بمصر ؛ وعباس محمود العقاد ، عبقرية الصديق ، وعبقرية عمر ، دار الهلال بمصر ؛ د. محمد حسين هيكل ، الفاروق عمر ، دار المعارف بمصر .

فى فترات متقاربة تقريبا . ونحن نمهد . بالمثلين السابقين لنوعين آخرين من المواقف هما اللذين نهتم بهما فى هذا السياق . أولهما الموقف الذى قد يثبت لدى الفرد إزاء قضية معينة ويعبر عن رأيه فيها وقد يحكم سلوكه الظاهر إزاءها، كموقف الفرد الذى ينادى بحرية المرأة أو بتقييد حق الطلاق أو بالتزام نهج سياسى معين . وثانيهما الموقف الإجتماعى أو السياسى العام الذى يتشكل باتفاق مواقف أفراد الجماعة إزاء قضية أو قضايا معينة . وقد تشكل هذه المواقف كما أسلفنا مفهوما عاما وقد يرتبط هذا المفهوم بالمواقف الأولية التى يكتسبها الأفراد من بيئتهم أثناء تنشئتهم ، التى تؤثر على ما يليها من خبرات ومواقف ، بحيث تكون هذه المفاهيم فى نهاية الأمر مستعصية على التغيير على النحو الذى سبق أن أشرنا اليه .

والشقان الأولان البسيطان من هذه المواقف التى حددناها هما اللذان تحاول عمليات الدعاية بالمعنى التجارى التعامل معهما ، وتحاول الإتجاهات الحديثة فيها ربطها بنواة الشخصية أو بسماتها من خلال ما يفيض به فن الإعلان الحديث من وسائل تخاطب الصغير والكبير من أفراد المجتمع . أما الشقان الأخيران المركبان من المواقف التى ذكرناها فهما اللذان تستهدف صياغتهما والتأثير فيهما العمليات الدعائية بالمعنى الإجتماعى والسياسى ، أو بالمعنى الإيديولوجى، مستخدمين فى ذلك كل ما يتيحه العصر من وسائل إتصال تخاطب الكبير والصغير فى آن واحد .

وواقع الحال انه لم تعد هناك، مع وسائل الإتصال الجماهيرى الحديثة فواصل يمكن أن تحدد فى وضوح بين المتلقين الذين تستهدفهم العمليات الدعائية ، والذين تتفاوت أعمارهم ومشاربهم ومواقفهم . وهذا يعنى أن سياسات الإتصال وتكنيكاته المعاصرة ، إذ تضع فى إعتبارها مساحات معينة من المتلقين بقصد

إحداث أثر معين ، أو أقصى درجة منه فيهم، تضع فى إعتبارها أيضا المساحات الأخرى الجماهير على إختلاف فى درجات التأثير المقصودة . ويظهر هذا مدى التعقيد الذى تنطوى عليه عمليات صياغة الرأى والتأثير فيه فى زمن أوشك الصراع فيه أن يكون صراع كلمة أو فكرة أو معتقد .

الدعاية الحربية والحرب النفسية[1]

وإذا كنا نلاحظ أن العقود الأخيرة قد إتجهت بالصراع إلى التركيز فى نواحيه الإيديولوجية ، فلنا أن نلاحظ فى الوقت نفسه أنه لا تزال هناك « حروبا محدودة » تدور رحاها ، أو يمكن أن تدور ، فى بقاع مختلفة من العالم ، على إرتباط وثيق لهذا النوع من الحروب المحدودة بالصراع الدائر بين الإيديولوجيات المهيمنة فى العالم .

وهذا يلفت نظرنا إلى ما يسمى « بالدعاية الحربية » و « الحرب النفسية » اللتين بدأتا فى إتخاذ طابعها المحدد ومداخلها العلمية إبتداء من الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) حتى يومنا هذا . وهذا النوع من الدعاية لا يعنينا فى هذا المقام إلا من حيث إستهدافه تغيير مواقف الأفراد أو الجماعات أو الدول لصالح من يقوم بها من الأطراف المتحاربة ولرفع الروح المعنوية لديها وإستنفار قدراتها القتالية من ناحية ، ولكسب تعاطف الناس هنا وهناك مع قضية أو قضايا بعينها من ناحية أخرى . كما أن هذا الضرب من الدعاية أو الحرب النفسية يستهدف أيضا تخذيل الخصوم وإضعاف روحهم المعنوية ، من خلال تكنيكات لا ترتبط دراستها أو دراسة تاريخها بمنهاج هذا البحث .

---

(١) أنظر كلامنا عن الحرب العالمية الأولى فى الفصل السادس .

الدعاية السياسية

وتنحصر أهداف الدعاية السياسية كما بينا فى غير موضع، فى تشكيل المواقف أو تغييرها على وجه العموم فى مستويات تتصل بحياة الإنسان فى كل جوانبها .

وعلى هذا فإننا إذا حصرنا النظرة فى نطاق النسق الاجتماعى السياسى الواحد، نجد أن الدعاية التى تمارسها الصفوة السياسية ، الحاكمة بقصد تثبيت أركان حكمها وإبقاء زمام السيطرة فى يدها ، هى ما يمكن أن يسمى « الدعاية السياسية » فى النطاق المحلى ، وقد ترتبط هذه الدعاية بنسق فكرى يتصل بتراث بيئى أو محلى، أو بواحدة أو أخرى من الإيديولوجيات التى تحاول أن تهيمن فى أكثر من نطاق أو فى نطاق النوع البشرى على إتساعه ، ولقد أصبحت الدعايه السياسية بهذه المعانى سمة من سمات الدولة الحديثة بكل ما يدخل فى تكوينها من جماعات ومؤسسات تتفاعل من خلال العمليات الإتصالية المتنوعة التى سبق تناولها فى هذا البحث .

وتكتسب الدعاية السياسية لذلك ، وللمعنى الشامل الذى تنطوى عليه ، أهمية بالغة فى نظر الباحثين فى مجالات العلوم الإجتماعية والسياسية . وإذا شئنا أن نرى هذه الدعاية فى أشد أشكالها فعالية ، فعلينا أن نتجه بنظرنا إلى تلك الأماكن من العالم التى ساد أو يسود فيها ما يسميه الباحثون «بالتغير الثورى» . وتنصرف الثورية عادة إلى وصف التغييرات السريعة أو الشاملة ، وإن لم تنطو بالضرورة على إستخدام شكل أو آخر من أشكال « القوة الفيزيقية » .

والتغيير بالمعنى الذى نتعرض له قد ينطوى على إنتقال السلطة فى مكان ما من فئة إلى فئة ، أو على تسيد إتجاه ثقافى مغاير للإتجاه الذى كان سائداً من قبل، أو على تغير طابع الحياة نفسها نتيجة للتقدم التكنولوجى . والسرعة والشمول

اللذان يميزان ما يسمى بعملية التغير الثورى نسبيان ولا شك ، تختلف معايير قياسها باختلاف المجال والأثر . فالثورة التى حدثت فى عالم الطيران على سبيل المثال إبتدأت مع بداية القرن العشرين تقريباً ولا تزال مستمرة ، والعقود التى تمت هذه الثورة خلالها طويلة بمعيار عمر الفرد ، وقصيرة بالقياس إلى تاريخ الحضارة البشرية .

وقد ترتب على هذه الثورة آثار بالغة الجسامة ، لما أضافته من إمكانيات فى جانب هام من جوانب إتصال الإنسان من ناحية ، ولإسهامها الكبير فى بلوغ الممارسة الفيزيقية للقوة حدا مروعا كما هى الحال فى أحوال الحروب الحديثة من ناحية أخرى . وتنعكس آثار هذا التقدم الثورى فى الجانب الآلى أو التكنولوجى على الجوانب السياسية فى النطاقات المحلية وغير المحلية . وآية ذلك فى نظرنا أن هذا الضرب من التغيير الثورى فى الجانب الآلى آذن بإنقضاء عصر الثورات الشعبية فى الجانب السياسى والإجتماعى ، على النمط الفرنسى أو الروسى مثلا ، كما أنه يوشك أن يؤذن بإنقضاء عصر الحروب العالمية الشاملة ، ليحل محلها عصر الصراع الإيديولوجى ، وليس ثمة بديل لذلك سوى فناء الجنس البشرى .

وفى نطاق الثورة السياسية ، يرى الماركسيون أنه لابد للتغيير أو الثورة أن تأتى من القاعدة العريضة التى يرتبط الإنتاج بها وليس من البناء الفوقى . ولا تتأتى الثورة إلا من خلال تهيئة يصطلح الماركسيون على تسميتها « بالموقف الثورى » ، وأية ثورة تقوم بها فئة من الفئات ولا ترتبط بما يسمى بالقاعدة(١) ، إن هى إلا من قبيل الثورات المضادة التى تحاول الرأسمالية بوساطتها أن تبقى على نفسها ومصالحها . وتلعب الإيديولوجية من وجهة النظر الماركسية دورا

---

(١) أنظر شرح مفهوم القاعدة فى بداية فصل « دعوة الاسلام » .

بالغ الأهمية فى قيادة وتوجيه القاعدة ، بالرغم من أن الإيديولوجية عندهم تقع فى « البناء الفوقى » على النحو الذى سنوضحه فى الفصل الأخير من هذا البحث . وذلك يعنى فى نظرنا أن الدعاية السياسية ذات أثر بالغ فى تهيئة الجماهير للثورة .

بيد أن الثورة لا تحد فى كل حال فى نطاق النسق الإجتماعى السياسى المعين، ولا أحسب أن الماركسيين يختلفون معنا فى أن طبقة البروليتاريا ، فى العالم بأسره تشكل فى نظرهم مجالا يكاد يكون واحدا للثورة كما يعرفونها . ولنا أن نضيف أن تاريخ العالم فى مسيرته الطويلة أعطانا أمثلة متعددة لضروب من الثورات الفكرية « كالبروتستنتية مثلا» التى بدأها قادة لا يوضعون فى مصاف السياسيين المحترفين، ثم إنعكست آثارها بعد ذلك على النظم السائدة فى الأنساق الإجتماعية السياسية من خلال ما يمكن أن يسمى « بالدعاية السياسية » وليس الدعاية الدينية وحسب .

وخلافا لمقتضيات القالب المعين الذى يضع الماركسيون الثورة فيه على نحو يجعل ما عداه من قبيل الثورة المضادة ، نستطيع أن نقول فى بساطة أن الجماهير الساخطة يمكن ولاشك أن تستجيب ، إذا إستطاعت ، لأية دعوة أو حركة تتوسم فيها القدرة على تحقيق أمانيها أو الوفاء بمصالحها . ولا يمكن لنا ، من وجهة نظر تاريخية ، أن نطمئن إلى أن كل ما مرت البشرية به وتمر من تقلبات وتغييرات فى شتى المجالات يرتبط فى الأساس بالإقتصاد أو يمكن أن يفسر بلغته أو بلغته وحدها . ونستطيع أن نمثل لإستجابة الجماهير الساخطة بأن الشعب المصرى كان قبل الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢ مهيئا للإستجابة لأية دعوة إلى تغيير النظام ، كائنا ما كان القائمون بها ، فلو أن أفراد آخرين ، غير الضباط الأحرار الذين تهيأت لهم فرصة إستخدام أداة القوة التى كانت

متاحة لهم ، إستطاعوا أن يقوموا بالثورة لوجدوا الإستجابة نفسها من الجماهير بصرف النظر عن إنتمائهم العقائدى . وتبدأ الدعاية السياسية عادة بعد أى تغير يطرأ على النظام السياسى فى لعب الدور الذى يربط الجماهير بالنظام أو المعتقد الجديد الذى تسود ، ولا حاجة بنا فى هذا المقام إلى معاودة الإشارة إلى الدور الذى تلعبه الدعاية السياسية بادىء ذى بدء فى تهيئة جموع الناس للثورة . وليس من الغريب أن تقوم جماعة أو جماعات بالعمليات الدعائية المهيئة للثورة ، ثم يستعصى عليها بعد ذلك أن تصل إلى السلطة السياسية لإفتقادها مصادر القوة التى تمكنها من ذلك ، وتأتى جماعة أخرى لتتولى السلطة بفضل ما هو متاح لها من أسباب القوة. وكان المجتمع المصرى على سبيل المثال يموج قبل الثورة بفئات متعددة ، قد تتفق مصالحها أو تتضارب ، ولكنها جميعاً دعت إلى التغيير على النحو الذى مكن جماعة الضباط الأحرار من الإستيلاء على السلطة .

الفصل الثامن

دعوة الاسلام والايديولوجية

٭ ٭ ٭

« إن هذه تذكرة فمن شاء إتخذ إلى ربه سبيلا »

٭ ٭ ٭

- تمهيـــد
- الفروع العلمية والصراعات الفكرية
- المادة والمنهج وآداة البحث
- حيرة لها مغـــزى
- الايديولوجية عند الماركسيين
- أسس الدعوة فى الاسلام

تمهيـــد

تبين الفصول السابقة من هذا البحث الدور الحضارى للإتصال فى إيجابه وسلبه وخطورته وخطره . وقد أوشك هذا الدور ـــ على تعدد وتعقد جوانبه وتباين صوره وإرتباطها بكل محاولات التفاعل البشرى ـــ أن يحد صراع الإنسان العاقل homo sapiens كما يقولون فى نطاق المجابهة « الإيديولوجية » بحيث يصبح « آخر الحرب الكلام » أو ، إن شئت ، « هى الكلام » على غير ما قصد إليه شاعرنا العربى القديم :

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون له ضرام
وإن النار بالعــودين تذكى وإن الحـرب أولها الكلام
لئن لم يطفها عقلاء قــوم يكون وقـودها جثث وهام

والجثث فى عصرنا الحديث هى ما سوف تستحيل إليه « الأفكار » أو « أنساق الأفكار » التى تعوزها مقومات البقاء ، أو تلك التى تغلوا « هامات » أبنائها من العقول القادرة على تبين مواطن قوتها ، أو التى يحال بينها وبين ذلك بقطع صلاتها بتراثها .

الفروع العلمية والصراعات الفكرية

ويعنينا هنا أن نتجه بالنظر إلى ما أشرنا إليه من أدوار تؤديها فروع العلم المختلفة فى مجالاتها المتعددة وتتصل بشكل أو آخر بما يدور فى العالم على إتساعه من صراع إيديولوجى ، على أن نحد نظرتنا العاجلة فى نطاق يمس حضارتنا من ناحية ويلقى لمحة من ضوء على ما ينبغى أن تتجه إليه عقولنا من ناحية أخرى .

فنحن لا نعيش وحدنا فى هذا العالم ولا أحسب أن أحدا من المشتغلين بصناعة الرأى، فى شرق العالم أو غربه، يستثنى عقولنا أو يعفى تراثنا مما تستهدف به العقول والتراث من تعتيم وتعقيم . بل لعله — على النقيض من ذلك — يحق لكل متجرد منصف أن يرى أننا ، وأننا على التخصيص، وما نمثل، وما يمكن أن نكون ، نحظى فى إستراتيجيات أصحاب الإيديولوجيات ، الغربى منها والشرقى على حد سواء ، وفى سياساتهم الإتصالية ، بمكان أى مكان .

المادة والمنهج وآداة البحث

قلنا إن طبيعة الصراع الدائر الآن جعلت السمات الفكرية هى الغالبة فى وجه الحضارة المعاصرة ، ومن ثم الأهمية البالغة لأدوار فروع العلم ومجالات البحث الأكاديمى . والفرع العلمى المعين مجال أو مجالات تتناول فيها مادة هذا العلم من خلال منهج أو مناهج معينة تفرضها طبيعة مادة البحث أو هدفه ، وتهيء فروع العلم فى مسيرتها أدوات أو وسائل تستعين بها . ولم يفت الصراع الفكرى أن يستغل هذه جميعاً . وإذا أردنا أن نمثل لذلك فى المجال الذى إخترناه فى إقتضاب شديد ، فإننا نقدم لذلك بحقيقة من تلك الحقائق التى لا يزال القرآن الكريم يكشف عنها كلما تقادم به العهد ، ليعطى — إن وعت العقول — الدليل المستمر والمتجدد على إتساق الزمان وإن طال وتباينت حقبه والمكان وإن تعدد أو إختلفت بيئاته مع هذا القرآن وما أتى به . وهذه الحقيقة التى يوقفنا القرن العشرون عليها هى ما سبق أن أشرنا إليه من إنتهاء الصراع إلى المناجزة « بالكلمة » . الكلمة التى أقام القرآن معجزته عليها قبل أربعة عشر قرن من الزمان ، وتحدى بها عقل الإنسان وقدرته ، فوقف عاجزا أمام بنائها ومضمونها ، وإن جاء التحدى — وهذا هو إعجاز الإعجاز — فى نطاق ممارسة العقل لنشاطه ، وليس فى نطاق إلغائه بخرق ما يستطيع أن يلحظه من القوانين السارية من حوله .

وكان لابد لفروع العلم الغربى من أن تتناول هذا القرآن من خلال مناهج تحكمها ما تستهدفه من محاولات الدحض ، تحت ستر من موضوعية علمية مدعاة وتجرد لم يستطعه دون إعتساف من جانبنا — أى من المشتغلين منهم بالدراسات الإسلامية على إتساعها ، وشاهدنا على ذلك تراث ضخم من الدراسات التى قام ويقوم بها المستشرقون والمبشرون ولا يختلف الجديد منها عن القديم فى الأخطاء والأباطيل التى تتواتر فيه.

وإذا كنا لانستطيع أن نوفى على بعض غاية فى هذا الحيز الضيق، فلا بأس من أن نعرض لبعض ما يلقاه القرآن الكريم على أيدى هؤلاء :

ترك المسلمون عامة ، مع إستثناءات قليلة يمكن إهمالها ، والعرب خاصة مهمة ترجمة معانى القرآن ليتولاها الفرنجة عنهم مستخدمين فى ذلك مناهج عدة وسبلا مختلفة تمكنهم من محاربة النص القرآنى فى خفاء من خلال إختيارهم للمعنى الذى يرون، وإنتقائهم لألفاظ بعينها[١] وهم لا يقفون عند ذلك، بل نرى بعضهم يعيد فى ترجمته ترتيب سور القرآن مدعيا أنه يقوم « بتغيير الترتيب التقليدى ليزيد من متعة المبتدى وفهمه » .

« altering the traditional arrangement to increace the pleasure and understanding of the uninitiated ».

وتحمل هذه الترجمة التى ظهرت أول مرة عام ١٩٥٦ اسم N. J. Dawood، كما تحمل من حيث معالجة النص كل سمات الترجمات الأخرى التى أشرنا إليها ،

---

(١) لكم نحس بالأسى ونحن نشير الى هذه الحقيقة ، إذ لا يتفق التمثيل لها والتفصيل مع مقتضيات منهج البحث الحالى ، ونعد بتناولها فى بحث مستقل إنشاء الله .

على نحو يؤكد أن الذى قام بها ليس مسلماً ، ولكن لا بأس فى هذه الحالة من أن يكون الجزء الظاهر من الإسم عربيا أو شبه عربى(١) حتى يسهل خداع الناس .

وليس هذا فحسب بل هناك من المستشرقين من أعاد فى ترجمته ترتيب آيات القرآن كما هى الحال فى ترجمة Rodwell التى نشرت أول مرة عام ١٨٦١ ، بدعوى ضرورات منهاجية معينة تعين على تفهم النص لا محل لتناولها هنا .

وإذا إنتقلنا إلى بعض وسائل البحث التى تتيحها فروع العلوم لنفسها لنلقى نظرة على دوائر المعارف والقواميس ، والدور الذى تلعبه فى هذه المجالات حد خطير ، يكفى أن نشير إلى دائرة المعارف الإسلامية التى صنفها المستشرقون فى عصر الغفلة التى لا تزال مهيمنة على عقولنا ، وليذهب من شاء إليها ليرى بنفسه ولنفسه صورنا الشائهة فى مرآة الغرب .

وأما عن القواميس العام منها والنوعى فحدث ولا حرج ، ويكفى أن نشير إلى ما إرتبط بألفاظ : « عربى » ، و « محمد » ، وغيرها فى معاجم الغرب لنتبين بعداً آخر من أبعاد السعار الفكرى الذى تتناول مخالبه كل ما يمت إلى الإسلام بصلة .

وقد يحق لنا أن نورد فى هذا السياق مثلا يظهر المفارقة البينية فى المواقف التى يتخذها الغرب من خلال الأداة الإتصالية العلمية ، فإننا إذا ما نظرنا إلى تعريف كلمة « يهودى Jew » فى قاموس أكسفورد فى كل من طبعته الرابعة

---

(١) N. J. Dawood, The Koran, Harmondsworth, Penguin Books, 1974.

والخامسة على التوالى ، نرى فارقا فى التعريف لاتحتاج دوافعه إلى تعقيب، ويكفى أن نورد التعريفين كما هما :

التعريف الاول (١) : يهودى (اسم) : شخص من الجنس العبرانى ؛ مرابى مبتز (معنى دارج) ، عاقد الصفقات المجحفة ؛ غنى كيهودى (تركيب) ؛ يهودى لا يؤمن = شخص لا يصدق ؛ قل هذا لليهود (تركيب يستخدم عند عدم تصديق أية رواية) ... ، تصيد اليهود = إضطهاد اليهود .

يهــــودى (٢) : (فعل) : يغش ، يحتال (دارج) .

التعريف الثانى (٣) : يهودى (اسم) : شخص من الشعب العبرانى أو اليهودى ، أو شخص يعتنق اليهودية ؛ مرابى (معنى مهين ومبتذل) ، التاجر الذى يعقد الصفقات المجحفة ؛ تصيد اليهود = إضطهاد اليهود .

Jew[1], Person of Hebrew; (transf., colloq.) extortionate (١) usurer, driver of hard bargains; rich as a Jew; unbelieving Jew, incredulous person; tell that (an unlikely tale) to the Jews; Jew - baiting, persecution of Jews. (The concise oxford Dictionary, Fourth Edition, 1954, P. 640).

Jew[2], v. t. (colloq.). Cheat, overreach. (المعجم السابق) (٢)

Jew, one of the Hebrew or Jewish people, or one who (٣) professes Judaism; (transf., detrg., vulg.) usurer, trader who drives hard bargains; Jew - baiting, persecution of Jews. (The concise oxford Dictionary, Fifth Edition, 1968, P. 652).

وأحسب أننا لسنا فى حاجة إلى بيان أوجه التغيير التى أدخلت على المعانى من حيث التعديل والإضافة والحذف ولياقة إستخدام الكلمة ، كما نلاحظ أن إستخدام الفعل Jew بمعنى «يغش أو يحتال» قد أسقط نهائياً فى الطبعة الأخيرة، بالرغم من وروده ككلمة مستقلة فى الطبعة السابقة .

ولئن كنا قد توخينا القلة فيم أوردنا من أمثلة تمشيا مع منهاج هذا البحث، فإن الأمر الذى يعنينا أن نبينه هنا ، إضافة لما يعنى به البحث فى مجمله من علاقة بين القوة والإيديولوجية والإتصال والرأى العام ، هو أن الهجمة القديمة الجديدة على الإسلام لا تزداد ضراوة وحسب فى تخفيها بين ثنايا المنهج وآداة البحث ، وإنما تحاول فى الوقت نفسه أن تكسب أرضا داخل نطاق معسكر الإسلام نفسه ، وهى لا تعدم بيننا من لا يستلهمون فى فكرهم وجهدهم سوى وحيها الخادع ولألائها الزائف .

وإذا كان « إتصال » الشرق العربى بأوربا يفسح المجال للعديد من القضايا التى لا تدخل فى نطاق البحث الحالى ، فلعل لنا أن ننهى هذه النقطة بكلمات للمستشرق « جيب » إختتار المستشرق الكبير « نيكلسون » أن ينهى بها تاريخه الشهير : A Literary History of the Arabs وعسانا أن نخرج منها بشيء:

« ... إن الأدب العربى الجديد ليس وريثاً للأدب العربى الكلاسيكى القديم إلا فى نطاق محدود ، بل وحتى يجنح إلى نبذ تركته كلية . وقادة هذا الأدب فى الغالب رجال نهلوا من ينابيع أخرى وينظرون إلى العالم بعيون مختلفة . ومع ذلك فإن الماضى لا يزال يؤدى دوراً فى خلفيتهم الفكرية ، وله على فريق منهم قبضة لا تهزها التأثيرات الجديدة إلا فيما ندر . وقد إشتبك أشياع القديم والجديد ، لعقود عدة ، فى صراع يستهدف روح العالم العربى ،

ولم يتأكد فيه النصر بعد لفريق دون فريق . وأبطال هذا الصراع ... هم الطبقات التى تعلمت فى أوربا من المصريين والشوام من ناحية والطبقات الأخرى ، فى مصر وغيرها من البلدان العربية الأقل تقدماً ، التى تلقت تعليماً تقليدياً من ناحية أخرى . وأيا كانت النتيجة التى سينتهى إليها هذا الصراع ، فلاشك فى أنه نوع العالم العربى من مرساه القديم ، وفى أن الأدب المعاصر فى مصر والشام ينفث فى تطوره الحالى روحاً غريبة عن التراث القديم » .

وإلى الذين قد يعن لهم أن يردوا ذلك إلى الأدب خاصة ، على ما فى ذلك من تجاهل لوجه من أشمل وأخطر وجـــوه الإتصال ، نسوق العبارة التى شاء « نيكلسون » أن يعقب بها بعد هذا الكلام مباشرة :
Hitherto western culture has only touched the surface of Islam « إن الثقافة الغربية لم تمس الإسلام حتى الآن إلا من عند السطح » . ثم مضى يتساءل « عما إذا كانت هذه الثقافة الغربية ستضرب فى نهاية الأمر فى الأعماق وتخترق الحواجز الداخلية لهذا النظام الكلامى Scholastic discipline والتراث الأدبى المتأصلين فى وجدان الشعوب الإسلامية(١) » .

وأحسب أن كلام « جيب » و « نيكلسون » يغنينا عن التعقيب فى هذا السياق وإن كان لا يعفى الباحثين منا فى مجالات العلوم الإجتماعية والسياسية وبقية فروع العلوم الانسانية من أن يطوروا مناهج جديده تستلهم تراثنا وتجلوا عبقريته ، وأن يستحدثوا أداة بحث تخلصه مما علق به .

---

(١) R. A. Nicholson, A Literary History of the Arabs, London, Cambridge University Press, 1956, PP. 469 - 70.

خطيرة لها مغزى

وكان من الطبيعى أن تنتهى مناهج البحث الغربى فى مجالات الدراسات الإسلامية ، بعد مسيرة سبعة قرون طوال، إلى مواجهة معضلة يستعصى على العقلية الغربية فهمها ، وإن سلمت بها ، وهى أن للإسلام جذوة روحية تزداد إتقاداً أو هى لا تخبو ، تحت ما تعرض ويتعرض له الشرق المسلم عامة والشرق العربى خاصة من قهر يطول وظلم يقيم . وهم إذ يقفون عند هذه الظاهرة ويطيلون الوقوف تأبى عليهم عقليتهم أو تأبى عليها مناهجهم ومقاصدهم ألا يتجاوزوا مقارنة عقيدة الإسلام وحضارته بغيرها من العقائد والحضارات التى لا يقعون فيها على مثيل لهذه الظاهرة الفريدة ، إلى نظرة متجردة تعينهم على فهم خصائص فى عقيدة الإسلام تقيم هذا الفارق وغيره بينها وبين المعتقدات التى تتناول بالدرس فى علوم الأديان وتواريخها ومقارناتها .

ولهذه الظاهرة الفريدة فى ذاتها دلالة بالغة على ما يستقيم فى مسألة الإعتقاد وما لا يستقيم ، وعلى ما يقوم على عقل الإنسان وينسجم مع فطرته وما لا يقوم أو ينسجم .

ونسوق لمن يريد أن يتأمل هذه الظاهرة الفريدة ، حقيقة أخرى لا نحسبها تجاوز إدراك من يقرأ تاريخ أو تواريخ العالم : مؤداها أن جيوش المسلمين - ما دمنا بصدد القوة وأنساق الأفكار - لم تجز بلدة لتتركها وقد حل بها الخراب وانتهبت يد السلب كل ما فيها على نحو ما هو مشهود به للتتار والمغول والصليبيين(١)،

---

(١) أنظر الدراسة التى تكاد تكون الوحيدة فى شمولها للحروب الصليبية من مقدماتها وحتى نهاياتها ، وهى واحدة من الدراسات القليلة التى تجلو ما أشرنا آنفا عند رنسيمان :
Steven Runciman, A History of the Crusades, Harmondsworth, Penguin Books, 1971, in three Volumes.

وإنما أرست على النقيض من ذلك كله أسس تحضر أقامت البنيان وحررت العقل وقومت الوجدان .

فأية قوة تلك التى إستطاعت فى أول أمرها أن تغير المواقف البعدية التى تتداخل لتكون المفاهيم ، ثم شكلت بعد ذلك المواقف الأولية التى تكون نواة الشخصية ؟(١).

فعلى من شاء أن يفهم هذه وتلك أن يتدبر أمر الإسلام أول ما يتدبر من خلال القرآن،فإن أوفى على غاية فى ذلك بتوخى روح التجرد ، فإنه ولا شك مدرك بعقله صفة الإعجاز فيه ، على نحو يقيم الدليل بعد ذلك على وجود ما ليس لعقل إنسان قدرة على الإحاطة به .

وإذا كان منهج هذا البحث يصل ما بين القوة والإيديولوجية بوشائج توحدها وإن إختلفت الأوجه البادية ؛ وإذا كان للإيديولوجية كما يصطلح عليها الغربيون معانى وخصائص محددة ، فما مبلغ إنطباق ذلك أو عدم إنطباقه فى نطاق ما هو إسلامى ؟

ولعلنا نستهدف بذلك أن نظهر جزئياً كيف أن الركون إلى الأنماط والقوالب ـ التى تصب بعض فروع العلم الظواهر المختلفة فيها ثم تربط بينها وتحاول أن تمال ـ مضلل إلى حد بعيد ويفسح المجال للإعتساف والتجنى تحت ستار العلمية أو يضع العوائق ـ إذا خلصت النوايا ـ فى طريق القدرة على توخى الموضوعية العلمية . ويصدق هذا أكثر ما يصدق فى مجالات مقارنة العقائد وتصنيفها .

---

(٢) أنظر الفصل السابع من هذا البحث .

لعل لنا أن نعود فى هذا السياق إلى تناول الإيديولوجية(١) من زاوية تحددها النظرة الماركسية ، إذ أن إستخدام لفظة الإيديولوجية ، وإن كان يرجع من الناحية التاريخية إلى أيام الثورة الفرنسية ، يرتبط الآن إرتباطاً ظاهراً بالماركسية ، ولا تكاد التعريفات الأخرى للإيديولوجية تنأى بها فى كثير عن المفهوم الماركسى لها اللهم إلا فى نطاق محاولة إستحداث فوارق بين ما هو ماركسى وما هو مضاد للماركسية فى الفكر الغربى ولذلك فإن هذا البحث لا يأبه كثيراً لتلك الفوارق .

والأمر الذى يعنينا فى الأساس يجمله سؤالان يترتب أحدهما على الآخر :

أولهما : هل الإسلام إيديولوجية لها نفس الخصائص التى تحددها التعريفات الغربية لهذا المصطلح ؟

وثانيهما : إذا كانت فلسفة الإيديولوجية تحدد طبيعة أسس مجابهتها لغيرها من الإيديولوجيات ، فهل تتفق هذه الأسس فى الاسلام مع غيرها من الأسس أم تختلف ؟

وواقع الحال أننا نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نعمل فى نطاق حيز محدود ما لا يمكن أن يوفى على غاية فيه إلا فى بحث مستفيض ، وعلينا مع ذلك أن نحاول على وعى بأن الإجمال لا يغنى فى هذا المقام بالذات عن تفصيل وتفصيل .

---

(١) أنظر الفصل الثانى من هذا البحث .

الايديولوجية عند الماركسيين

لا بد لنا ، حتى نفهم المعنى الدقيق للايديولوجية عند الماركسيين، من أن نلقى نظرة على مفهومى « القاعدة Basis » و « البناء الفوقى Superstructure » عندهم . فهم يرون أن هذين المفهومين من مفاهيم « المادية التاريخية » يظهران الصلة بين العلاقات الإقتصادية الإجتماعية وكل العلاقات المجتمعية الاخرى . وتتمثل القاعدة فى مجموع علاقات الإنتاج Production Relations التى تشكل البناء الإقتصادى للمجتمع . ومفهوما « القاعدة » و « علاقات الإنتاج » يترادفان ولكنهما لا ينطابقان . ويتلازم مفهوم « علاقات الإنتاج » مع مفهوم « قوى الإنتاج » أو القوى المنتجة Productive Forces ، بينما يتلازم مفهوم «القاعدة» مع مفهوم «البناء الفوقى» . ويشمل البناء الفوقى الافكار والتنظيمات والمؤسسات . وتشمل الأفكار البنائية الفوقية الآراء السياسية والقانونية والأخلاقية والجمالية والدينية والفلسفية ، التى يصطلح أيضا على تسميتها بـ « أشكال الوعى الإجتماعى Forms of Saciel Consciousness » . وتعكس كل أشكال الوعى الإجتماعى العلاقات الإقتصادية بطريقة أو بأخرى . فبعضها كأشكال الوعى السياسية والقانونية ، يعكس العلاقات الإقتصادية مباشرة ، والبعض الآخر ، كالفن والفلسفة ، إن هو إلا إنعكاسات غير مباشرة لها . وتضم علاقات البناء الفوقى العلاقات الإيديولوجية . وعلى حين تتشكل علاقات الإنتاج مستقلة عن وعى الإنسان ، فإن العلاقات الإيديولوجية لا تتشكل إلا بعد دخولها فى هذا الوعى . وتستقل ظواهر البناء الفوقى نسبيا فى تطورها بالرغم من تحكم القاعدة فيهما . وترتبط بكل شكل من أشكال الوعى الإجتماعى تنظيمات ومؤسسات بعينها ، فترتبط الأحزاب السياسية بالافكار السياسية، وترتبط مؤسسات الدولة بالافكار السياسية والقانونية ، وترتبط الكنيسة وتنظيماتها بالدين وهلجرا . فالكل

تكوين إجتماعي إقتصادى قاعدة محددة وبناء فوقى يقابلها(١).

ويفرق المؤرخون الماركسيون بين القاعدة والبناء الفوقى فى المجتمعات التى تتميز بتملك العبيد أو بالإقطاع أو الرأسمالية أو الشيوعية . وتقترب التغيرات التى تطرأ على القاعدة والبناء الفوقى على التحول من تكوين إجتماعى إقتصادى إلى تكوين إجتماعى إقتصادى آخر Social Formation . كما يتطور البناء الفوقى فى نطاق التكوين الإجتماعى الإقتصادى الواحد بإنتقال هذا التكوين من مرحلة إلى مرحلة ، كما هى الحال عندما ينتقل التكوين إلى الإمبريالية مثلا ؛ إذ يظهر البناء الفوقى عندئذ علاقات الجنوح المتزايد إلى الرجعية .

والبناء الفوقى ، الذى تأتى به القاعدة الإقتصادية إلى الوجود والذى إن هو إلا إنعكاس لها ، ليس سلبيا ، إذ أنه يلعب دوراً فعالا فى العملية التاريخية ويؤثر فى كل جوانبها ، بما فى ذلك الجانب الإقتصادى الذى يدين له هذا البناء الفوقى بوجوده . ففى المجتمع الذى يقوم على الملكية الخاصة تنطوى القاعدة والبناء الفوقى على بناء متضاد Antagonistic Structure . ويسود المجتمع الرأسمالى ، على سبيل المثال ، صراع إيديولوجى عنيف بين البرجوازية والبروليتاريا وبين وجهات النظر السياسية والأخلاقية والفلسفية وغيرها لهذه الطبقات . وتحدد طبيعة البناء الفوقى المتضادة مع القاعدة الإقتصادية فى المجتمع الطبقى ، الأدوار المتعارضة لإيديولوجية الطبقات . ففى المجتمع الرأسمالى يقوم البناء الفوقى السياسى ، بأفكاره البرجوازية عن الحرية والمساواة وغيرها ، على خدمة القاعدة الإقتصادية الرأسمالية ، فى حين تتجه الإيديولوجية والتنظيمات

---

(١) V. Afanasyev & Others, Fandamentals of Scientific Socialism, Moscow, Progress Publishers, 1959, PP. 258 – 285

البروليتارية إلى القضاء على القواعد الإقتصادية الرأسمالية ولا يتأتى إلا فى المجتمع الإشتراكى - حيث تخلو علاقات الإنتاج من التضاد - أن يصبح البناء الفوقى أكثر تجانساً بالمعنى الإجتماعى ويستهدف خدمة قضية عامة ، هى إصلاح وتطوير القاعدة الإقتصادية للإشتراكية .

ولقد عمدنا إلى بيان هذه المفاهيم بدقة على النحو الذى يطرحها به الماركسيون إذ أن ذلك يبين من وجهة نظرهم الأسس التى يقوم عليها النسق الإجتماعى السياسى وعوامل تغييره ودور الإيديولوجية فى ذلك . ويعرف الماركسيون الإيديولوجية - بعد ذلك - على أنها نسق من الآراء أو الأفكار السياسية أو القانونية أو الأخلاقية أو الجمالية أو الدينية أو الفلسفية(١). والايديولوجية جزء من البناء الفوقى ، وهى بهذا المعنى تعكس فى النهاية العلاقات الإقتصادية ، ويمثل الصراع الإيديولوجى الصراع الطبقى فى المجتمع الذى تصطرع فيه الطبقات(٢). وقد تكون الإيديولوجية علمية أو غير علمية ، وقد تكون إنعكاسا حقيقياً وزائفا للواقع ، حيث تغذى مصالح الطبقات الرجعية إيديولوجية زائفة ، بينما تعين مصالح الطبقات التقدمية والثورية على تشكيل إيديولوجية علمية .

ولقد إستطردنا فى هذا العرض بأمانة وبالمصطلح الماركسى نفسه إلى هذا الحد لاننا لسنا من أنصار إغلاق القضايا بالتعمية أو بمنطق خاص لا يلبث زيفه أن يثير نفور العقول ، ولاننا نريد من ناحية أخرى أن نصل مع الماركسيين

---

(١) Clemens Dutt, Fundamenatls of Marxism – Leninism, Moscow, Progress Publishers, 1964 P. 141 Séq.

(٢) G. Kursanov, Fundamentals of Dialectical Materialism, Moscow, Progress Publishers, 1967, PP. 5 - 17.

إلى ما إنتهوا اليه من أن الإيديولوجية - بالرغم من أنهم يرون أن الإقتصاد هو الذى يحكم تطورها - إستقلالا نسبيا معينا يرد إلى إستحالة تفسير محتوى الإيديولوجية عن طريق الإقتصاد مباشرة من ناحية ، وإلى كون التطور الإقتصادى والتطور الإيديولوجى ليسا متساويين من ناحية أخرى ، فضلا عن أن إستقلال الإيديولوجية النسبى هذا يزداد وضوحا إذا ما لاحظنا آداء القوانين الداخلية التى تحكم التطور الإيديولوجى والتى لا يمكن إرجاعها مباشرة إلى الإقتصاد فى المجالات الإيديولوجية البعيدة كل البعد عن القاعدة الإقتصادية .

ونحن لا نحب أن نختلف كثيرا مع الماركسيين فيما إنتهوا إليه أو فيما كان لابد لهم من أن ينتهوا إليه وإلا إستحال نتاج عقل الإنسان ، عبر التاريخ كله ، إلى مادة يحكمها قالب واحد ذو صفات معينة تحددسمات هذا الفكر ومايرتبط به من سياسة وتشريع وأخلاق وفن ودين وفلسفة ؛ وإنما نحب أن نستخلص فى وضوح أن النسق الفكرى - ولانقول الإيديولوجية - يمكن أن يكون غير ذلك .

وإذا كان حظ الماركسيين الأول من المعرفة الدينية قد إرتبط بقدرتهم على التعرف على معتقداتهم الأصلية والذهاب معها مذاهب شتى بحيث ولوها فى نهاية الأمر أدبارهم ، فإن حظهم هذا قد إرتبط فى الوقت نفسه بقصور آداة عصرهم عن أن تنقل لهم صورة صحيحة للدين الذى يوفى على كل غاية فيما يستهدفونه فى جانب المادة،وفى الجانب الذى تفتقد حياة الإنسان بدونه كل مغزى لها وهو جانب الروح .

وهذا يعنى أن قدرتهم على فهم ما تطرحه حضارة الغرب من معتقدات

وفلسفات آلت بها مسيرة القرون إلى الإفلاس(١) وإرتبطت بادىء ذى بدء بعجزهم عن الإلمام بما تستقيم عليه وبه طبيعة الإنسان ، ولا نحب أن نستطرد فى التعليل لذلك بالقصور الإتصالى من ناحية وبالحروب الضارية التى شنتها المعتقدات الأخرى ضد الإسلام من ناحية أخرى ، على وعد بأن نعود إلى ذلك فى مبحث آخر .

والفلسفة الماركسية تأتى متأخرة فى تاريخ الفلسفة الغربية، لتعكس مع غيرها من الفلسفات الغربية المعاصرة ما يسود الفكر الغربى بعامة من إفكار . ولا يرد

---

(١) يقول برتراند رسل فى تقديمه لكتابه عن تاريخ الفلسفة الغربية ، والذى نتفق معه تمام الاتفاق على أنها فلسفة غربية :

« ... إن معظم الأسئلة التى توليها العقول المتأملة جل إهتمامها هى من ذلك الضرب الذى لا يستطيع العلم الاجابة عليه ، والاجابات الواثقة التى يعطيها أصحاب اللاهوت لم تعد تبدو مقنعة كما كانت فى القرون الخوالى ... » ثم يمضى بعد ذلك قائلا : « إن العلم يخبرنا بما نستطيع أن نعرف ، ولكن الذى نستطيع أن نعرفه قليل ، وإذا ما تناسينا مقدار ما نجهل نصبح مستغلقين إزاء الكثير من الأشياء بالغة الأهمية . وعلم اللاهوت من ناحية أخرى يجعلنا نعتقد اعتقادا تعسفيا أننا نعرف على حين أننا فى الحقيقة نجهل ، وهو يولد بذلك ضربا سخيفا من الاهانة للكون .

إن عدم اليقين ، إزاء الآمال والمخاوف الواضحة ، مؤلم ولكن ينبغى أن نحتمل إذا كان لنا أن نحيا دون أن نستعين بما يريح من أقاصيص العفاريت ... والشىء الرئيسى الذى لا تزال الفلسفة تستطيع فى عصرنا أن تفعله لدارسيها هو أن تعلمهم كيف يحيون دون يقين ودون أن يشلهم التردد بالرغم من ذلك » :

(B. Russell, History of Western Philosophy; London; George Allen & Unwin Ltd, 1946, PP. 10 - 11).

أنظر الملحق السابع فى الملاحق الانجليزية .

ذلك ـ كما يحلو للمنصريين أن يزعموا ـ إلى قدرة على توخى موضوعية علمية تتميز بها العقلية الغربية أو الأوربية دون العقليه الشرقية ، وإنما يرد ذلك إلى أن مادة الفكر التى طرحت على هذه العقلية لم يكن لها من الخصائص ما يستقر بها على يقين منطق أو طمأنينة قلب . ويشهد على ذلك الواقع التاريخى والإجتماعى للغرب على النحو المطروح فى مختلف مجالات فروع العلوم الإنسانية .

ولنا بعد ذلك وقفة نجمل فيها الأمور التى يحق معها للناظر فى تجرد إلى النسق الفكرى الإسلامى أن يخلص إلى أن عقيدة الإسلام كدين ودولة تعكس إتصال هدى السماء بجهد الإنسان الذى قدر له أن يسعى على هذه الأرض ليبلغ بنفسه غايتها عبر حياة لا يمكن أن تستقيم له أو به إلا على أسس من العدل والخير والخلق تقوم عليها الصورة المثلى لإجتماع نوعه وتفاعله بتحقيق التوازن بين ما ركب فيه وجبل عليه كفرد وبين ما يقتضيه هذا الإجتماع .

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »

(٩ ـ الحجر)

« إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا »

(٢٣ ـ الانسان)

« ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين »

(٨٩ ـ النحل)

« يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشرا ونذيرا * وداعيا إلى الله باذنه وسراجا منيرا »

(٤٥ ، ٤٦ ـ الأحزاب)

« وما أرسلناك إلا كافة للناس »

(٢٨ ـ سبأ)

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير »[1] .

(١٣ - الحجرات)

أولا :

إذا كان الماركسيون يفسحون المجال للإستقلال النسبي للإيديولوجية على النحو الذي أسلفناه ، وإذا كان الواقع الحضاري الذي ينتمون إليه قد إنتهى بالعقل الغربي إلى إلحاد له تاريخ في أوربا وإلى التبشير « بموت الرب » في الولايات المتحدة الأمريكية[2] . على تعدد وإختلاف في المذاهب والفلسفات لا يكاد يقر معها العقل المعاصر على قرار، إذا كان هذا، وكان ذاك، فإنه يحق لنا أن نقول للحضارة الغربية : إن إيديولوجية الإسلام ، إذا صح أن نستخدم هذه اللفظة ، لم تنبثق من خلال واقع تاريخي معين أيا كانت تسميته ، وإنما طرحت من عل على عقل الإنسان ووجدانه لتأخذ بيده عبر كل واقع وأي واقع يرتبط بحياته على إختلاف بيئاته وتنوعها من حيث الخصائص والمكان والزمان.

---

(١) لم نشأ أن نورد آيات القرآن العظيم التي نستشهد بها موزعة داخل السياق، ورأينا أن نجملها عقب كل مسألة نعالجها ، إذ أن ذلك أوفر على الغاية وأبين ، فالنظرة الى هذه الآيات مجتمعة تظهر ما قصدنا اليه من دلالة قدمنا لها قبل الاستشهاد وقد اتبعنا مع ذلك، نهجا يعين على ايضاح الفكرة . وهذه الأيات ـ على سبيل المثال ـ تبين حسب ترتيبها :

١ ـ أن الله سبحانه وتعالى هو الذي نزل القرآن ، ٢ ـ وأن هذا التنزيل كان على مهبط وحي الله محمد صلى الله عليه وسلم ، ٣ ـ وأن لهذا التنزيل وظيفة معينة يؤديها ، ٤ ـ وأن مهمة الدعوة تناط بالرسول العظيم ، ٥ ـ وأن هذه الدعوة موجهة الى الانسانية بأسرها ، وليس ثمة معيار للتفرقة بين أوناس وآخرين سوى الالتزام بمقتضيات هذه الدعوة .

(٢) أنظر الملحق الثامن في الملاحق الانجليزية .

ثانياً :

إن طرح المعتقد الإسلامى على هـذا النحو ينطوى على إعجاز فريد ، أو هو وحيد، فى كونه لا يلغى أو يجافى قدرة العقل بوضعه إزاء معجزات تخرق القوانين التى استطاع أن يلحظ منطقها أو إضطرادها فى الأشياء من حوله ؛ ولكنه ـ على النقيض من ذلك ـ يحيى فى هذا العقل كل قدرة على النفاذ والإستقراء والتأمل ، ويفتح له صفحات الكون والنفس ليقرأ فيها ما شاء له أن يقرأ .

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » .

(٥٣ ـ فصلت)

« وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » .

(١٠٥ ـ يوسف)

« إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » .

(٢٢ ـ الأنفال)

(٤) « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون * ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون * وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون * وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون * وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون *

وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون * وعلامات وبالنجم هم يهتدون * أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون * وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم * والله يعلم ما تسرون وما تعلنون * والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون * أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون * إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون * .

(١٠ - ٢٢ النحل)

« إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور » .

(٢٨ - فاطر)

ثالثـــا :

لم تتحدى معجزة الإسلام عقل الإنسان إلا فى خصيصة يرتبط بها صميم نشاطه . فتحدى القرآن الناس أن يأتوا ، إن إستطاعوا بآيات كتلك الآيات المحكمات التى آتى بها .

« أم يقولون إفتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وأدعوا من إستطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » .

(١٣ - هود)

« وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين * أم يقولون إفتراه قل فأتوا بسورة مثله وأدعوا من إستطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » . *

(٣٧ ، ٣٨ - يونس)

« وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين . »

(٢٣ - ٢٤ البقرة)

وهذا يعنى أن القرآن تحداهم بسلاح « الكلمة » ، وهو سلاح متاح لهم ، ومن طوقهم أن يبلغوا فى حسن إستخدامه آمادا بعادا ، فهل إستطاعوا ؟ وهل يستطيعون ؟ كلا . . لا نقولها فى ثقة الذين يجهلون ما يرددون ، ولكننا نقولها فى يقين من يستطيع ويستكنه خصائص عبقرية اللغة، ثم يقف فى حيرة إذ يتأمل هذا البناء القرآنى الشامخ، الذى إستعصى فهمه ويستعصى على المستشرقين والمبشرين الذين لا يحق لهم أو لأيهم أن يزعم أنه يجمع فى فهمه القاموس المنقوص للعربية مقومات النشأة والفطرة والقدرة، فضلا عن أن يدعى روح التجرد التى نستطيع أن نقول أننا لم نقع أبدا عليها عندهم على طول رحلتنا على دروب المستشرقين والمبشرين الملتوية .

رابعـــا :

ولا ترتبط معجزة الكلمة فى الإسلام بالبناء اللغوى القرآنى وحسب ، بل إتصلت الكلمة بالكلمة لتعطى، فيما تعطى، تشريعا يتسق مع جميع مقومات الإنسان فى إنفراده وإجتماعه .

« الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » .

(١ - هود)

« الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور باذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » .

(١ - إبراهيم)

« ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » .

(٨٩ - النحل)

« وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فأحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .

(٤٨ - المائدة)

« ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

(٥٢ - الأعراف)

« كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب » .

(٢٩ - ص)

« إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن إهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل » .

(٤١ - الزمر)

ولا أحسب أن منهج هذا البحث يفسح المجال للتوسع فى عرض ذلك .

خامسا :

وحسبنا أن نشير إلى أن إكتمال القضايا القرآنية فى تناولها للمفهوم الإلهى ، ولمفهوم النبوة ، والكون وللإنسان وفطرته وما يتصل به ، وفى تناوله العلاقة بين هذه القضايا جميعا يدل مع النظرة التى تتجرد وتستقيم - على أنه يستحيل على عقلية واحدة عاشت فى القرن السابع أن تأتى بهذا القرآن من عندياتها وإن أتيح لها - جدلا - كل ما أتيح عبر التاريخ ، وحتى القرن العشرين ، من معرفة بشرية أو من قدرة بشرية على المعرفة . والثابت أن محمدا صلى الله عليه وسلم جاءنا بالقرآن ولم يستطع المستشرقون والمبشرون أن يشككوا فى صحة نسبة القرآن أو أى جزء منه إلى مهبط وحى الله : محمد صلى الله عليه وسلم .

والواضح إذن أن هذا القرآن لم يأت به رسل متعاقبون على إمتداد زمنى واسع على تشكك فى النص أو فى نسبة جزء منه إلى هذا الرسول أو ذاك ، فضلا عن أنه أنزل إلى البشرية فى مجموعها . فالإسلام لا يحمل قوما معينين على رؤوس البشر أجمعين ، ولا يختار من بينهم مختارين .

« وما أرسلناك إلا كافة للناس »

(٢٨ - سبأ)

« قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا »

(١٠٨ - الأعراف)

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم »

(١٣ - الحجرات)

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون »

(٣٣ - التوبة)

« بعثت إلى الأحمر والأسود »

(حديث شريف)

« لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى »

(حديث شريف)

ولعلنا نستخلص مما تقدم أن المعانى التى ترتبط بلفظة « الإيديولوجية » فى الفكر الغربى لا يمكن أن تنصرف على الإجمال والتخصيص إلى عقيدة الإسلام؛ وعلينا أن نبحث عن لفظة أخرى إذا كان لنا أن نعبر عن النسق الفكرى الإسلامى فى مفهومه الصحيح ، وأحسب فى نهاية الأمر أننا فى غنى عن ذلك. وليس لأى إطار أو قالب مستجلب أن يفرض نفسه علينا فى نظرتنا إلى عقيدتنا إذا كان ذلك سيجعلها تلتبس بمعان نحن أحرى بأن ندفعها عنها .

أسس الدعوة فى الاسلام

وبعد أن إنتهينا إلى أن للإسلام خصائصا تغاير تلك التى تميز «الايديولوجية» كما تعارف عليها الغربيون على الإجمال ، نجد أن معانى الآيات والأحاديث التى أوردناها فى الفقرة السابقة تنتهى بنا بالضرورة إلى معالجة السؤال الثانى الذى طرحناه حول أسس الدعوة فى الاسلام .

فالإسلام ، إذن ، دعوة يتوجه بها إلى البشرية فى مجموعها ، ولهذه الدعوة من الخصائص ما يجعلها قادرة على أن تفى بغاية إنسان القرن العشرين فيما ينشده من تكامل ، لا على مستوى الجماعة بالمعنى الضيق وحسب ، بل على مستوى

بجماعة الإنسان على تبـــاين البيئة واختلاف المكان . وحسبنا فى هذا المقام أن نعالج هذه المسألة من خلال نظرة واحد من أكبر الثقاة الغربيين، كما يقولون فى مجالات الدراسات الإسلامية وهو W. Mountgomery watt إذ أن ما ينتهى إليه هذا المستشرق ، على ما به من انحياز لم تستطع حركة الإستشراق فى عمومها أن تخلص نفسها من ربقته، يمثل ما إضطر الباحثون الغربيون إلى التسليم به بعد طول عناء وجنوح إلى التعمية والإلتواء . فنراه يخصص فى نهاية كتاب له عن الإسلام وتكامل المجتمع « صفحتين للحديث عن مستقبل الإسلام يسلم فيهما فى وضوح كامل بهذه الحقيقة التى طال تجاهلها ، وإن كان هذا التسليم لا يقصد به إحقاق ما هو حق ، بقدر ما يقصد به تنبيه الغرب إلى ما يمكن أن يكون من أمر هذا الدين، إذا إستيقظ أصحابه من سباتهم وأفاقوا من غفلتهم، وعادوا إلى الإستمساك بالعروة الوثقى ، وقرر لهم أن يعاودوا إبراز الدور الحضارى للنسق الفكرى الإسلامى . فهو يرى - W. M. Watt - « أن النقطة الأساسية فى هذه المسألة هى التجديد الروحى أو إستعادة القوة المحركة The fundamental point is spiritual renwel or the recovery of dynamic « ويتساءل عما إذا كان ذلك ممكنا بالنسبة للإسلام وعما إذا كان من الممكن إعادة الحياة والحيوية إليه بعد قرون من الإزدهار والإنحسار . ونراه يضطر إلى التسليم بأن كل شىء يوحى بأنهم - أى الدارسين الغربيين - ليسوا فى وضع يمكنهم من القطع بإستحالة ذلك، وإن كان دون تحقيقه خرط القتاد ، ومن الغريب حقا أن نجده يحاول أن يملل فى الوقت نفسه لعدم قدرته على القطع برأى فى هذه المسألة بأنه لا تتوفر للإنسان فى الوقت الحاضر المعرفة الكافية التى تمكنه من أن يدلى برأيه ، ويشكك حتى فى إمكانية توفر هذه المعرفة مستقبلا » ثم يقول : « إن حركة الحياة فى قلوب أفراد الجماعة تبدو فى الأساس خفية بمعنى أنها ليست

من حيث المبدأ فى متناول علم الإنسان» . ويزعم أن أى جهد مهما بلغ لن يمكننا والحال كذلك من التكهن بما سيكون عليه أمر الإسلام ، كما لو كانت المسألة لا تناط إلا بالغيبيات التى يعول فى الحكم عليها على ما تنطوى عليه القلوب ، وكما لو كان الإسلام دينا بلا تاريخ يشير ما مضى منه إلى ما يحتمل فى مستقبل أيامه ، وكما لو كانت مقوماته من الخفاء بحيث لا يستطيع الباحث أن يقف منها على أثر .

ولسنا ندرى ، أو لعلنا ندرى ، ما إذا كان ذلك سذاجة منه أو تساذجا !

وأعجب معى ، وأطل العجب ، إذ نراه بعد ذلك يقرر « أن الإسلام فى سعيه إلى كسب العالم كله سينصرف على نحو يتسق مع سجله القديم » .

فصاحبنا - W. M. Watt - يعى ، إذن ، أن للإسلام سجلا تاريخيا قديما يجلو واقعة كممارسة ، ولا شك فى أن سمات هذه الممارسة ترتبط بخصائص النسق الفكرى الإسلامى ؛ وما قيمة التاريخ بعامة ، وما قيمة علم الإجتماع بخاصة ، إذا لم تستطع مناهجها أن تعين الباحث على تقييم الظواهر على نحو يصل الماضى بالحاضر ويخرج من هذه العلاقة بما يمكنه من إستشراف أمور المستقبل واحتمالاته ؟

ثم يصل « وات » بعد ذلك إلى حقيقة لا نحسب أنها تخفى على أى ناظر إلى واقع عالمنا المعاصر ، وهى أنه من غير المحتمل أن ينجذب الناس ، فى هذا العالم الذى أصبح عالما واحداً بالمعنى المادى ، إلى أى دين سوى ذلك الدين الذى يتوجه به « رسالة » إلى العالم كله . ثم يستطرد قائلا بالحرف الواحد : « ولو أننا نظرنا إلى الإسلام ، إذن ، من وجهة النظر هذه ، نرى أنه ليس غير مناسب لأن يكون

دينا للعالم كله : If we look at Islam, then, from this point of view we see that it is not unfitted to be a religion for the whole world » (١)

وكان بوسعه بالطبع أن يقول فى بساطة « نرى أنه مناسب » بدلا من « نرى أنه ليس غير مناسب » التى تشى – بالرغم مما يحاوله من تعلل – عن الغصة فى حلوقهم ؛ أو إن شئت فقل فى عقولهم وقلوبهم من هذا الدين . وواقع الحال أن دعوة الإسلام وما تتميز به ليست فى أى حاجة إلى قولة يقولها من الفرنجة أو أشياعهم قائل ، أو يلتوى بها أو يحول دونها حائل ، كائناً من قد يكون ، أو كائنة ما قد تكون مكانته على الحقيقة أو الإدعاء . ولكننا نجرى هنا على ما تقول به العرب من أن الحق ماشهدت به الأعداء . والحق فى دعوة الإسلام بين وقائم بمقوماته وصفاته ، وإن حاول الخصوم أن يوهنوا من عزمة دعاته ، وهيهات لهم أن يبلغوا الغاية فى ذلك ، وإن تيسرت لهم أسباب النجح إلى حين :

« يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » (٣٢ – التوبة) .

ولعله ليس من معاد القول فى غير ماحل أن نذكر وقد شارف هذا الفصل على نهايته أننا لا نحاول ، ولا يدخل فى منهج هذا البحث أن نحاول ، دفاعاً عن الإسلام ، وإنما قصدنا إلى إلقاء لمحة من ضياء على الدور الحضارى للنسق الفكرى الإسلامى وقيمته الإتصالية الكبرى التى ترتبط بقدرته على جعل التفاعل الإجتماعى السوى يؤدى إلى التكامل الإجتماعى لاعلى مستوى الجماعة بالمعنى الضيق وحسب ، بل على مستوى جماعة الإنسان .

---

(١) W.Montgomery watt, Islam and the integration of society, London, Routledge & Kegan Paul, 1970, PP. 282-3.

ونعود هنا الى Watt الذى يقول « لقد كان الإسلام عبر تاريخه ديناً ذا رسالة عالمية. وفى سعيه لكسب العالم كله سيعمل على نحو يتفق مع سجله القديم . وسيلقى أمره قبولا، أيضاً ، بإعتبار أن فكرته عن المجتمع الدينى - الذى يقوم على أساس من الوحى والذى يتبع شرعة سلوكية منزلة من السماء - هى الأساس المرضى الوحيد لمجتمع العالم . It has throughout its history been a missionary and universalistic religion. In seeking to win the whole world it would be acting congruently with its past record. It would make a good case, too, for thinking that its idea of a religious cammunity based on revelation and following a divinely - given code of conduct is the only satisfactory basis for a world Society[1].

فلـ « دين القيمة » أصول إعتقادية تقيم الإيمان على سواء الحجة فى العقل والوجدان ، وأحكام تشريعية تهيىء السبل المثلى لإجتماع الإنسان ، على إختلاف المكان أو الزمان ، وتتكامل هذه الأصول وتلك الأحكام لتناغم بين ما يعتمل داخل الإنسان فى إنفراده وما تقتضيه دواعى إجتماعية ، فتقر النفوس بلا قلق أو إغتراب ، وتنسق الجهود فى غير ما خلل أو إضطراب ، ويستطيع الإنسان أن يمضى فى بناء حضارته وإثرائها فى كل مستوياتها .

وإذا كانت الأصول الإعتقادية للإسلام تستطيع أن تقيم حجتها على كل أساس سوى يستقيم فى عقول أولى الألباب من أصحاب الموضوعية والتجرد ، وإذا كانت أحكام الإسلام التشريعية تهيىء سبل إجتماع الإنسان على أسس العدل

---

(١) أنظر الملحق التاسع فى الملاحق الانجليزية

الدين المطلق التى لا يستطيع معها دعى أو مشعوذ أن يسعى بظلم أو يسوغه دون أن يخرج من دائرة المسلمين الذين تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ؛ نقول إذا كانت هذه وكانت تلك، كان على دعاة الاسلام أن يستلهموا روحه ويسترشدوا بهدى قرآنه الذى يقول :

«أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن»
(١٢٥ - النحل).

« لا إكراه فى الدين »

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين »
(٨ - الممتحنة)

هذه فى إقتضاب الأسس المكينة التى تقوم عليها الدعوة التى تضع عقل الإنسان حيث ينبغى له أن يوضع وتناجزه بالكلمة والمنطق الذى يستقيم دون عنت ، ثم هى بعد ذلك لا تقيد حرية من شاء فى أن يعتقد فيما يشاء ثقة منها فى غلبة المنطق السوى إذا أتيح له أن يصل إلى أفهام الناس .

فما بالنا نتقاعس ونفسح المجال لغيرنا ممن ليست لإيديولوجياتهم مقومات عقيدتنا كى تعلو أصواتهم بالباطل اللجلج ، وتركنا عقول شبابنا نهبا مشاعا تتناهشه مخالب سياسات الإتصال التى يرسمها أصحاب هذه الإيديولوجيات ، وكيف ندع إنتماءاتنا الثقافية أو الفكرية تتوزع هنا أو هناك ، والحق بين لا يتطلب تسيده سوى أن يتاح له الطرح الخالص النقى الذى لا تطوعه مصلحة أو منفعة، بل الذى يطوع العقول والقلوب جميعا لما فيه صالح الإنسان، وسبحان الذى « خلق الإنسان » علمه البيان » .

الملاحق العربية

الملحق الأول

دور اللغة العالمية فى الاتصالات العامة وفى التفاهم الدولى*

يستخدم العالم قرابة من ٢٩٠٠ لغة . ويمكننا أن نقدم الهند كمثال فى هذا الصدد حيث توجد ٥٠ لغة تقريبا . وفى القارة الإفريقية وحدها هناك ما يقرب من الفى لغة مستخدمة ، ذلك بخلاف العديد من اللهجات المنبثقة عن هذه اللغات المتعددة .

ولعلنا ندرك مدى الخسارة فى الوقت والمال التى تنجم عن الإفتقار إلى لغة موحدة . ونظرا لأن المتحدثين لا يستطيعون أن يتفاهموا مباشرة فان الترجمة الفورية والتحريرية فى المؤتمرات المختلفة ، لكل وثيقة إلى عدد من اللغات ، يضاعف التكاليف والطاقة المبذولة ضعفين أو ثلاثة أضعاف . وقد كشفت الوثائق التى نشرتها الأمم المتحدة عن جزء من المبالغ الضخمة التى أنفقت بسبب تعدد اللغات المستخدمة فى الحياة الدولية .

ولا يخفى أن الأساليب المستخدمة فى المنظمات الدولية الحكومى منها وغير الحكومى يقوم على أساس تفرقة لغوية : فهناك خليط من اللغات بعضها يعرف باللغات الرسمية (وهى كثيرة) وبعضها يطلق عليه « لغات عمل » وهناك لغات لا تحمل أيا من هذه الأوصاف . ولعل ذلك يتعارض مع مبدأ تحقيق المساواة بين الأمم الكبير منها والصغير . ويجدر بنا أن نشير فى هذا الصدد إلى أى مدى يشعر الإنسان عندما يتحدث إلى أجنبى لا يلم تماما بلغته بإحساس بالنقص ولعل ذلك هو ما يفسر الحاجة إلى لغة دولية .

---

* أوتون بانسير ، دور اللغة العالمية فى الاتصالات العامة وفى التفاهم الدولى ؛ أنظر : ندوة لوبليانا عن وسائل الإتصال الجماهيرى والتفاهم الدولى ، ١٩٦٨ ، وزارة الاعلام ، كتب مترجمة ، ٧٠٩ .

ولكن ألا تقوم هذه اللغة بالفعل منذ ثمانين عاما أثريت خلالها بصفة متصلة بتراث عالمى فعلى ، وهكذا فان لغة « الإسبيرانتو » تبرز فى أيامنا هذه باعتبارها الوسيلة الوحيدة القادرة على توفير الإحترام الكامل لمبادىء التعاون الثقـــافى .

لقد قررت اللجنة التنفيذية لليونسكو عام ١٩٥٩ أن تخلد عام ١٩٦٠ ستة من أكبر الشخصيات العالمية من بينها زامينهوف أبو لغة الإسبيرانتو .

لقد حظيت هذه اللغة بالتأييد لأنها كانت ولا تزال لغة عالمية فى عناصرها وفى إستخدامها وفى طابعها الإنسانى ولعل ذلك يرجع أولا إلى أختيار الكلمات ذات الإستعمال الدولى والتى ينتشر إستخدامها فى عدد كبير من اللغات .

إن من يعرفون الفرنسية والإنجليزية والأسبانية والروسية والألمانية سوف يعثرون فى يسر وبسهولة على بعض الكلمات المنبثقة من هذه اللغات . وسوف يهتدون بسرعة إلى هذه الحقيقة وهى أن الإسبيرانتو لغة أوربية . غير أن الإسبيرانتو ليست ـ رغم ذلك ـ لغة أوروبية وذلك لأنها تشتمل أيضا على عدة خصائص تقربها من اللغات المستخدمة فى آسيا وأفريقيا .

إن الإسبيرانتو ليست كذلك لغة هندية ـ أوروبية . والمعروف أن جميع اللغات الهندية الأوربية هى فى الواقع لغات مطاطة من حيث إستخداماتها . وبمعنى آخر فإن المقاطع التى تستخدم فى تبيان العلاقات النحوية أو فى تكوين مجموعات متجانسة من الكلمات عن طريق المشتقات المختلفة ، ليس لها أى وجود مستقل ، ولكنها ستبرز دائما مرتبطة بأصولها . أما فى الإسبيرانتو فإن العلاقات المتبادلة القائمة بين الكلمات لا تعبر عن وحدة الكلمات الثابتة . إن هذا التكوين اللغوى ينتشر إستخدامه فى اللغات التى تحتفظ بمشتقاتها الأساسية . ولعلنا لا نندهش

وحزمت أمرها على أن تدفع بالرقى الإجتماعى قدما وأن ترفع مستوى الحياة فى جو من الحرية أفسح .

ولما كانت الدول الأعضاء قد تعهدت بالتعاون مع الأمم المتحدة على ضمان أطراد مراعاة حقوق الإنسان والحريات الاساسية وإحترامها .

ولما كان الادراك العام لهذه الحقوق والحريات الأهمية الكبرى للوفاء التام بهذا التعهد .

فان الجمعية العامة تنادى

بهذا الاعلان العالى لحقوق الانسان

على أنه المستوى المشترك الذى ينبغى أن تستهدفه كافة الشعوب والأمم حتى يسعى كل فرد وهيئة فى المجتمع ، واضعين على الدوام هذا الاعلان نصب أعينهم، إلى توطيد إحترام هذه الحقوق والحريات عن طريق التعليم والتربية وإتخاذ إجراءات مطردة ، قومية وعالمية ، لضمان الإعتراف بها ومراعاتها بصورة عالمية فعالة بين الدول الأعضاء ذاتها وشعوب البقاع الخاضعة لسلطانها .

المادة الأولى : يولد جميع الناس أحرارا متساوين فى الكرامة والحقوق ، وقد وهبوا عقلا وضميرا ، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضا بروح الاخاء .

المادة الثانية : لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الورادة فى هذا الإعلان، دون أى تمييز، كالتمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأى السياسى أو أى رأى آخر ، أو الأصل الوطنى أو الاجتماعى أو الثروة أو الميلاد أو ى وضع آخر ، دون أى تفرقة بين الرجال والنساء .

وفضلا عما تقدم فلن يكون هناك أى تمييز أساسه الوضع السياسى أو القانونى أو الدولى للبلد أو البقعة التى ينتمى اليها الفرد سواء كان هذا البلد أو تلك البقعة

مستقبلا أو تحت الوصاية أو غير متمتع بالحكم الذاتي أو كانت سيادته خاضعة لأى قيد من القيود .

المادة الثالثة : لكل فرد الحق فى الحياة والحرية وسلامة شخصه .

المادة الرابعة : لا يجوز إسترقاق أو إستعباد أى شخص، ويحظر الاسترقاق وتجارة الرقيق بكافة أوضاعها .

المادة الخامسة : لا يعرض أى إنسان للتعذيب ولا للعقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الحاطة بالكرامة .

المادة السادسة : لكل إنسان أينما وجد الحق فى أن يعترف بشخصيته القانونية .

المادة السابعة : كل الناس سواسية أمام القانون ولهم الحق فى التمتع بحماية متكافئة منه دون أية تفرقة ، كما أن لهم جميعاً الحق فى حماية متساوية ضد أى تمييز يخل بهذا الاعلان وضد أى تحريض على تمييز كهذا .

المادة الثامنة : لكل شخص الحق فى أن يلجأ إلى المحاكم الوطنية لإنصافه من أعمال فيها إعتداء على الحقوق الأساسية التى يمنحها له القانون .

المادة التاسعة : لا يجوز القبض على أى إنسان أو حجزه أو نفيه تعسفا .

المادة العاشرة : لكل إنسان الحق ، على قدم المساواة التامة مع الآخرين ، فى أن تنظر قضيته أمام محكمة مستقلة نزيهة نظرا عادلا علنيا للفصل فى حقوقه والتزاماته وأية تهمة جنائية توجه اليه .

المادة الحادية عشر : (١) كل شخص متهم بجريمة يعتبر بريئا إلى أن تثبت إدانته قانونا بمحاكمة علنية تؤمن له فيها الضمانات الضرورية للدفاع عنه .

(٢) لا يدان أى شخص من جزاء أداء عمل أو الامتناع عن أداء عمل إلا إذا كان ذلك يعتبر جرما وفقاً للقانون الوطنى أو الدولى وقت الإرتكاب، كذلك لا توقع عليه عقوبة أشد من تلك التى كان يجوز توقيعها وقت إرتكاب الجريمة.

المادة الثانية عشر : لا يعرض أحد لتدخل تعسفى فى حياته الخاصة أو أسرته أو مسكنه أو مراسلاته أو لحملات على شرفه وسمعته، ولكل شخص الحق فى حماية القانون من مثل هذا التدخل أو تلك الحملات.

المادة الثالثة عشر : (١) لكل فرد حرية التنقل وإختيار محل إقامته داخل حدود كل دولة.

(٢) يحق لكل فرد أن يغادر أية بلاد بما فى ذلك بلده كما يحق له العودة اليه.

المادة الرابعة عشر : (١) لكل فرد الحق فى أن يلجأ إلى بلاد أخرى أو يحاول الإلتجاء اليها هربا من الإضطهاد.

(٢) لا ينتفع بهذا الحق من قدم للمحاكمة فى جرائم غير سياسية أو لأعمال تناقض أغراض الأمم المتحدة ومبادئها.

المادة الخامسة عشر : (١) لكل فرد حق التمتع بجنسية ما.

(٢) لا يجوز حرمان شخص من جنسيته تعسفا أو إنكار حقه فى تغييرها.

المادة السادسة عشر : (١) للرجل والمرأة متى بلغا سن الزواج حق التزوج وتأسيس أسرة دون أى قيد بسبب الجنس أو الدين، ولهما حقوق متساوية عند الزواج وأثناء قيامه وعند إنحلاله.

(٢) لا يبرم عقد الزواج إلا برضى الطرفين الراغبين فى الزواج رضى كاملا لا إكراه فيه .

(٣) الأسرة هى الوحدة الطبيعية الأساسية للمجتمع ولها حق التمتع بحماية المجتمع والدولة .

المادة السابعة عشر : (١) لكل شخص حق التملك بمفرده أو بالإشتراك مع غيره .

(٢) لا يجوز تجريد أحد من ملكه تعسفا .

المادة الثامنة عشر : لكل شخص الحق فى حرية التفكير والضمير والدين ، ويشمل هذا الحق حرية تغيير ديانته أو عقيدته ، وحرية الاعراب عنهما بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر ، ومراعاتها ، سواء أكان ذلك سراً أم مع الجماعة .

المادة التاسعة عشر : لكل شخص الحق فى حرية الرأى والتعبير ، ويشمل هذا الحق حرية إعتناق الآراء دون أى تدخل ، واستقاء الانباء والافكار وتلقيها وإذاعتها بأية وسيلة كانت دون تقيد بالحدود الجغرافية .

المادة العشرون : (١) لكل شخص الحق فى حرية الإشتراك فى الجمعيات والجماعات السلمية .

(٢) لا يجوز أرغام أحد على الإنضمام إلى جمعية ما .

المادة الحادية والعشرون : (١) لكل فرد الحق فى الاشتراك فى إدارة الشئون العامة لبلاده إما مباشرة وإما بواسطة ممثلين يختارون إختياراً حراً .

(٢) لكل شخص نفس الحق الذى لغيره فى تقلد الوظائف العامة فى البلاد .

(٣) أن إرادة الشعب هى مصدر سلطة الحكومة ، ويعبر عن هذه الإرادة

بإنتخابات نزيهة دورية تجرى على أساس الاقتراع السرى وعلى قدم المساواة بين الجميع أو حسب أى إجراء مماثل يضمن حرية التصويت .

المادة الثانية والعشرون : (١) لكل شخص بصفته عضوا فى المجتمع الحق فى الضمانة الاجتماعية وفى أن تحقق بوساطة المجهود القومى والتعاون الدولى ، وبما يتفق ونظم كل دولة ومواردها، الحقوق الإقتصادية والاجتماعية والتربوية التى لا غنى عنها لكرامته وللنمو الحر لشخصيته .

المادة الثالثة والعشرون : (١) لكل شخص الحق فى العمل ، وله حرية إختياره بشروط عادله مرضية كما أن له حق الحمايه من البطالة .

(٢) لكل فرد دون أى تمييز الحق فى أجر متساو للعمل .

(٣) لكل فرد يقوم بعمل الحق فى أجر عادل مرض يكفل له ولاسرته عيشة لائقة بكرامة الانسان تضاف اليه ، عند اللزوم ، وسائل أخرى للحماية الاجتماعية .

(٤) لكل شخص الحق فى أن ينشىء وينضم إلى نقابات حماية لمصلحته .

المادة الرابعة والعشرون : لكل شخص الحق فى الراحة ، وفى أوقات الفراغ ، ولا سيما فى تحديد معقول لساعات العمل وفى عطلات دورية بأجره

المادة الخامسة والعشرون : (١) لكل شخص الحق فى مستوى من المعيشة كاف للمحافظة على الصحة والرفاهية له ولاسرته، ويتضمن ذلك التغذية والملبس والمسكن والعناية الطبية وكذلك الخدمات الاجتماعية اللازمة ، وله الحق فى تأمين معيشته فى حالات البطالة والمرض والعجز والترمل والشيخوخة وغير ذلك من فقدان وسائل العيش نتيجة لظروف خارجة عن إرادته .

(٢) للأمومة والطفولة الحق فى مساعدة ورعاية خاصتين ؛ وينعم كل

الأطفال بنفس الحماية الإجتماعية سواء أكانت ولادتهم ناتجة عن رباط شرعي أم بطريقة غير شرعية .

المادة السادسة والعشرون : (١) لكل شخص الحق في التعلم ، ويجب أن يكون التعليم في مراحله الاولى والأساسية على الأقل بالمجان ، وأن يكون التعليم الاولى إلزاميا ، وينبغى أن يعمم التعليم الفنى والمهنى ، وأن ييسر القبول للتعليم العالى على قدم المساواة التامة للجميع وعلى أساس الكفاءة .

(٢) يجب أن تهدف التربية إلى إنماء شخصية الإنسان إنماءاً كاملا ، وإلى تعزيز إحترام الإنسان والحريات الأساسية وتنمية التفاهم والتسامح والصداقة بين جميع الشعوب والجماعات العنصرية أو الدينية ، وإلى زيادة مجهود الامم المتحدة لحفظ السلام .

(٣) للآباء الحق الاول فى إختيار نوع تربية أولادهم .

المادة السابعة والعشرون . (١) لكل فرد الحق فى أن يشترك إشتراكا حرا فى حياة المجتمع الثقافى وفى الاستمتاع بالفنون والمساهمة فى التقدم العالمى والإستفادة من نتائجه .

(٢) لكل فرد الحق فى حماية المصالح الادبية والمادية المترتبة على إنتاجه العلمى أو الادبى أو الفنى .

المادة الثامنة والعشرون : لكل فرد الحق فى التمتع بنظام إجتماعى دولى تتحقق بمقتضاه الحقوق والحريات المنصوص عليها فى هذا الإعلان تحققا تاما .

المادة التاسعة والعشرون : (١) على كل فرد واجبات نحو المجتمع الذى يتاح فيه وحده لشخصيته أن تنمو نموا حرا كاملا .

(٢) يخضع الفرد فى ممارسة حقوقه وحرياته لتلك القيود التى يقررها القانون فقط ، لضمان الاعتراف بحقوق الغير وحرياته واحترامها ولتحقيق المقتضيات العادلة للنظام العام والمصلحة العامة والاخلاق فى مجتمع ديمقراطى .

(٣) لا يصح بحال من الاحوال أن تمارس هذه الحقوق ممارسة تتناقض مع أغراض الامم المتحدة ومبادئها.

المادة الثلاثون : ليس فى هذا الإعلان نص يجوز تأويله على أنه يخول لدولة أو جماعه أو فرد أى حق فى القيام بنشاط أو تأديه عمل يهدف إلى هدم الحقوق والحريات الواردة فيه.

الملاحق الانجليزية

that it is not unfitted to be a religion for the whole world. It has throughout its history been a missionary and universalistic religion. In seeking to whin the whole world it would be acting congruently with its past record. It would make a good case, too, for thinking that its idea of a religious community based on revelation and following a divinely—given code of conduct is the only satisfactory basis for a world society. In Islam's conception of itself and of its function in the world these are elements of truth which could be developed.

The other side of the picture, however, is very dark. The obstacles seem almost insuperable.

Can all this and more be done? It is most unlikely. Yet neither the sociologist nor the religious man (of any religion) will say that it is impossible.

W. Montgomery Watt, Islam and the Integration of Society, London, Routledge and Kegan Paul, 1970, pp. 282-3.

Appendix IX

The Future of Islam

... The fundamental point is spirtiual renewal or the recovery of dynamic. Is this possible for Islam ? After centuries of renescence and sclerosis can it be revived and rejuvenated ? Everything suggests that we are not in a position to say this impossible. Man certainly has not enough knowledge at the moment to make such pronouncements, and it is doubtful whether he ever will have. The movement of life in the hearts of the members of a community would seem to be essentially hidden, in the sense that it is in principle beyond the reach of human science. If this is so, no amount of effort will enable us to predict the future of Islam. What our studies show us, however, is something of the presuppositions of a renewal of Islam and of the circumstances in which it would take place in particular, the difficulties to be overcome'

So long as Christianity has not solved the problems which led to its recession and disintegration in the Middle East, there is a place for Islam and a funcion for it to perform .. The deeper reason, however, is that in this world, which in a material sense has become one world, men are not likely to be attracted to any religion except one which claims to have a message for the whole world.

If we look at Islam, then, from this point of view, we see

scientific society. He looked forward to the reappearance of faith in a truly transcendent God — not the false image of cultural Christianity. By the 1970s the term Death of God had fallen into disuse, but its essential drives and concerns continued in small circles of self-styled "radical theologians"

Encyclopaedia Britannica, op. cit., Vol. III.

Appendix VIII

Death of God movement, radical Christian (mainly Protestant) theological school that arose in the U.S. during the 1960s, evoking extraordinary publicity, response, and controversy. Although thinkers of many varied viewpoints have been grouped within this school, basic to practically all of them is the conviction that belief in God is impossible or meaningless in the modern world, and that man's fulfillment is to be found in the secular life of this world.

Thomas J. J. Altizer, probably the most radical and certainly the best known of them, asserted that the traditional Judeo — Christian God had actually died in the Crucifixion of Jesus of Nazareth and henceforth entered into the processes of the secular, historical world. Paul Van Buren contended that talk about God is linguistic nonsense, because it purports to deal with a transcendent reality, about which meaningful talk is no longer possible. William Hamilton held that the absence or death of God made it possible for men to assume full responsibility and activity in the work and love of this world, freed from dependence on a providential Father in Heaven; he also centered on Jesus as the model person and still Lord for all Christians. Gabriel Vahanian, actually a Neo-Calvinist rather than a radical theologian, held that the Death of God was both a religious and cultural event, occurring because the (essentially pagan) mythological terms in which the Christian fath had traditionally been expressed became obsolete in a modern

Appendix VII

"Almost all the questions of most intrest to speculative minds are such as science cannot answer, and the confident answers of theologians no longer seem so convincing as they did in former centuries..."

... Science tells us what we can know, but what we can know is little, and if we forget how much we cannot know we become insensitive to many things of very great importance. Theology, on the other hand, induces a dogmatic belief that we have knowledge where in fact we have ignorance, and by doing sogenerates a kind of impertinent insolence towards the universe Uncertainty, in the presence of vivid hopes and fears, is painful, but must be endured if we wish to live without the support of comforting fairy tales. It is not good either to forget the questions that philosophyasks, or to persuade oureselves that we have found indubitable answers to them. Toteach how to live without certainty, and yet without being paralysed by hesitation, is perhaps the chief thing that philosophy, in our age, can still do for those who study it.

B. Russell, The History of western Philosopy, London, George Allen, and unwin, 1946, The Introduction.

Appendix V I (a)

...the more or less deliberately planned and systematic use of symbols, chiefly through suggestion and related psychological techniques, with a view to altering and controlling opinions, ideas, and values, and ultimately to changing overt actions along predetermined lines. Propaganda may be open and its purpose avowed, or it may conceal its intention. It always has a setting within a social-cultural framework, without which neither its psychological nor its cultural features can be understood.

Kimball Young.

Appendix V I (b)

... a systematic attempt by an interested individual (or individuals) to control the attitudes of groups of individuals through the use of suggestion, and, consequently, to control their actions.

Leonard W. Doob.

Appendix V I (c)

... the dissemination of a viewpoint considered by a group to be 'bad', 'unjust', 'ugly', or 'unnecessary' is propaganda, in terms of that group's standards.

L W. Doob.

Quoted from : J. A. C. Brown, Techniques of Persuasion, Harmondsworth, Penguin Books, 1969, PP. 19 —20.

Appendix V

"Show me in the clearest and most unambiguous manner that a certain mode of proceeding is most reasonable in itself, or most conductive to my interest, and I shall infallibly pursue that mode, so long as the views you suggested to me continue present to my mind. . . .Render the plain dictates of justice level to every capacity. . . and the whole species will become reasonable and virtuous. It will then be sufficient for juries to recommend a certain mode of adjusting controversies. . . . It will then be sufficient for them to invite offenders to forsake their errors. . . . Where the empire of reason was so universally acknowledged the offender would either readily yield to the expostulations of authority, or, if he resisted though suffering no personal molestation he would feel so weary under the unequivocal disapprobation and the observant eye of public judgement as willingly to remove to a society more congenial to his errors.

William Godwin, Political Justice.

Appendix I V (a)

"I, for my part, understand by it an opinion that gradually takes root among a whole people, especially among those who have the most influence when they work together as a group. In this way it wins the upper hand to such an extent that one meets it everywhere. It is an opinion that without being noticed takes possession of most heads, and even in situations where it does not dare to express itself out loud can be recognized by a louder and louder muffled murmur It then requirse only some small opening that will allow it air, and it will break out with force Then it can change all nations in a brief time and give whole parts of the world a new configuration".

The New Encyclopaedia Britannica, Macropaedia, Vol. 15.

Appendix I V (b)

"Public opinion as interpreted... by those French writers who are clearest on the subject is the agreement of many or of the majority of the citizens of a state with respect to judgments which every single individual has arrived at as a result of his own reflection or of his practical knowledge of a given matter".

The New Encyclopaedia Britannica, Macropaedia, Vol. 15.

and THAT the magistrates might sheath the sword of justice among a people who would be universally actuated by the sentiments of truth and piety, of equity and moderation, of harmony and universal love.

The passive and unresisting obedience which bows under the yoke of authority, or even of oppression, must have appeared in the eyes of an absolute monarch the most conspicuous and useful of the evangelic virtues. The primitive Christians derived the institution of civil government, not from the consent of the people, but from the decrees of Heaven. The reigning emperor, though he had usurped the sceptre by treason and murder, immediately assumed the sacred character of vicegerent of the Deity. To the Deity alone he was accountable for theabuse of his power; and his subjects were indissolubly bound by their oath of fidelity to a tyrant who had violated every law of nature and society. The humble Christians were sent into the world as sheep among wolves; and since they were not permitted to employ force even in the defence of their religion, they should be still more criminal if they were tempted to shed the blood of their fellow-creatures in disputing the vain privileges or the sordid possessions of this transitory life.

Edward Gibbon, Op. Cit., pp. 286 — 8.

They seldom inspire virtue, they cannot always restrain vice Their power is insufficient to prohibit all that they condemn, nor can they always punish the actions which they prohibit. The legislators of antiquity had summoned to their aid the powers of educations and of opinion. But every principle which had once maintained the vigour and purity of Rome and Sparta was long since extinguished in a declining and despotic empire. Philosophy still exercised her temperate sway over the human mind, but the cause of virtue derived very feeble support from the influence of the Pagan superstition. Under these discouraging circumstances a prudent magistrate might observe with pleasure the progress of a religion which diffused among the people a pure, benevolent, and universal system of ethics, adapted to every duty and every condition of life, recommended as the will and reason of the supreme Deity, and enforced by the sanction of eternal rewards or punishments. The experience of Greek and Roman history could not inform the world how far the system of national manners might be reformed and improved by the precepts of a divine revelation; and Constantine might listen with some confidence to the flattering, and indeed reasonable, assurances of Lactantius. The eloquent apologist seemed firmly to expect, and almost ventured to promise, THAT the establishment of Christianity would restore the innocence and felicity of the primitive age; THAT the worship of the true God would extinguish war and dissention among those who mutually considered themselves as the childern of a common parent; THAT every impure desire, every angry or selfish passion, would be restrained by the knowledge of the Gospel;

seat is in Heaven. They gratefully acknowledge the many signal proofs which they have received of the divine favour;and they trust that the same Providence will for ever continue to protect the prosperity of the prince and people. From these vague and indefinite expressions of piety three suppositions may be deduced, of different, but not of an incompatible nature. The mind of Constantine might fluctuate between the Pagan and the Christian religions. According to the loose and complying notions of Polytheism, he might acknowledge the God of the Christians as one of the many deities who compose the hierarachy of Heaven. Or perhaps he might embrace the philosophic and pleasing idea that, notwithstanding the variety of name, of rites, and of opinions, all the ects and all the nations of mankind are united in the worship of the common Father and Crea'or of the universe.

But the counsels of princes are more frequently influenced by views of temporal advantage than by considerations of abstract and speculative truth. The partial and increasing favour of Constantine may naturally be prepared to the esteem which he entertained for the moral character of the Christians, and to a persuasion that the propagation of the Gospel would inculcate the practice of private and public virtues. Whatever latitude an absolute monarch may assume in his own conduct, whatever indulgence he may claim for his own passions, it is undoubtedly his interest that all his subjects should respect the natural and civil obligations of society. But the operation of the wisest l ws is imperfect and precarious.

Appendix III

... The wisdom of the emperors provided for the restitution of all the civil and religious rights of which the Christions had been so unjustly deprived. It was enacted that the places of worship, and public lands, which had been confiscated, should be restored to the church, without dispute, without delay, and without expense: and this severe injunction was accompanied with a gracious promise, that, if any of the purchasers had paid a fair and adequate price, they should be indemnified from the Imperial treasure. The salutary regulations which guard the future tranquility of the faithful are framed on the principles of enlarged and equal toleration; and such an equality must have been interpreted by a recent sect as an advantageous and honourable distinction. The two emperors proclaim to the world that they have granted a free and absolute power to the Christians, and to all others, of following the religion which each individual thinks proper to prefer, to which he has addicted his mind, and which he may deem the best adapted tohis own use. They carefully explain every ambiguous word, remove every exception, and exact from the governers of the provinces a strict obedience to the true and simple meaning of an edict which was designed to establish and secure, without any limitation, the claims of religious liberty. They condescend to assign two weighty reasons which have induced them to allow this universal taleration : the human intention of consulting the peace and happiness of their people; and the pious hope that by such a conduct they shall appease and propitiate the Deity, whose

Appendix II

If the bishops of the council of Nice had been permitted to follow the unbiassed dictates of their conscience, Arius and his associates could scarcely have flattered themselves with the hopes of obtaining a majority of votes in favour of an hypothesis so directly adverse to the two most popular opinions of the catholic world. The Arians soon perceived the danger of their situation, and prudently assumed those modest virtues whcih, in the fury of civil and religious dissentions, are seldom practised, or even praised, except by the weaker party. They recommended the exercise of Christian charity and moderation, urged the incomprehensible nature of the controversy, disclaimed the use of any terms or definitions which could not be found in the Scriptures, and offered, by very liberal concessions, to satisfy their adversaries without renouncing the integrity of their own principles. The victorious faction received all their proposals with haughty suspicion, and anxiously sought for some irreconcilable mark of distinction, the rejection of which might involve the Arians in the guilt and consequences of heresy.

Edward Gibbon, Decline and Fall of the Roman Empire, Harmondsworth, Pelican Books, 1963, p. 313.

After Constantius death (361), the orthodox Christian majority in the West consolidated its position. The Arian persecution conducted by Emperor Valens (364 — 378) in the East and the success of the teaching of Basil the Great of Caesarea, Gregory of Nyssa, and Gregory of Nazianzus led the Homoiousian majority in the East to realize its fundamental agreement with the Nicene party. When the emperors Gratian (367 - 383) and Theodosius I (379 - 395) took up the defense of orthodoxy, Arianism collapsed. In 381 the second ecumenical council met at Constantinople Arianism was proscribed, and a statement of faith, the Nicene Creed, was apporoved.

Although this ended the heresy in the empire, Arianism continued among some of the Gemanic tribes to the end of the 7th century. In modern times some Unitarians are virtually Arians in that they are unwilling either to reduce Christ to a mere human being or to attribute to him a divine nature identical with that of the Father. The Christology of Jehovah's Witnesses, also, is a form of Arianism ; they regard Arius as a forerunner of Charles Taze Russell, the founder of their movement.

The New Encyclopaedia Brittannica, Vol. I, 1977, PP. 509 - 510.

however, this was only the beginning of a long-protracted dispute.

From 325 to 337, when Constantine died, the Arian leaders, exiled after the Council of Nicaea, tried by intrigue to return to their churches and sees and to banish their enemies. They were partly successful.

From 337 to 350 Constans, sympathetic to the orthodox Christians, was emperor in the west, and Constantius II, sympathetic to the Arians, was emperor in the East. At a council held at Antioch (341), an affirmation of faith that omitted the homoousion clause was issued. Another council was held at Sardica (modern Sofia) in 342, but little was achieved by either council.

In 350 Constantius became sole ruler of the empire, and under his leadership the Nicene party (orthodox Christians) was largely crushed. The extreme Arians then declared that the Son was "unlike" (anomoios) the Father. These Anomoeans succeeded in having their views endorsed at Sirmium in 357, but their extremism stimulated the moderates, who asserted that the Son was "of similar substance" (homoiousios) with the Father. Constantius at first supported these Homoiousians but soon transferred his support to the Homoeans; led by Acacius, who affirmed that the Son was "like" (homoios) the Father. Their views were approved in 360 at Constantinople, where all previous creeds were rejected, the term ousia ("substance" or "stuff") was repudiated, and a statement of faith was issued stating that the Son was "like the Father who begot him."



Appendix I

Arianism, a Christian heresy first proposed early in the 4th century by the Alexandria presbyter Arius. It affirmed that Christ is not truly divine but a created being. The fundamental premise of Arius was the uniqueness of God, who is alone self-existent and immutable; the Son, who is not self-existent cannot be God. Because the Godhead is mique, it cannot be shared or communicated so that the Son cannot be God. Because the Godhead is immutable the Son, who is mutable, being represented in the Gospels as subject to growth and change, cannot be God. The Son must. therefore, be deemed a creature who has been called into existence out of nothing and has had a beginning. Moreover, the Son can have no direct knowledge of the Father since the Son is finite and of a different order of existence.

According to its opponents, especially Athanasius. Arius' teaching reduced the Son to a demigod. reintroduced polytheism (since worship of the Son was not abandoned), and undermined the Christian concept of redemption since only he who was truly God could be deemed to have reconciled man to the Godhead.

The controversy seemed to have been brought to un end by the Council of Nicaea (AD 325). which condemned Arius and his teaching and issued a creed to safeguard orthodox Christian belief. This creed states that the Son is homoousion to Patri ("of one substance with the Father"), thus declaring him to be all that the Father is : he is completely divine. In fact,

Appendices

المراجـــــع

المراجع العربية :

٠ القرآن الكريم

٠ الكتاب المقدس

— اسماعيل على سعد ، نظرية القوة . مبحث فى علم الاجتماع السياسى ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٧٨ .

— اليان ج ويدجرى ، التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس إلى توينبى ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، الهيئة العامة ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

— بدر الدين أبو غازى ، الفن فى عالمنا ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

— عباس محمود العقاد ، الله ، دار الهلال ، القاهرة .

— ـــــــــــــــــــ ، عبقرية الصديق .

— ـــــــــــــــــــ ، عبقرية عمر .

— طه حسين ، الشيخان ، دار المعارف بمصر ، القاهرة .

— لطفى عبد الوهاب يحيى ، الديمقراطية الأثينية ، مركز التوزيع الجامعى الاسكندرية ، ١٩٦٦ .

— محمد حسين هيكل ، الفاروق عمر ، دار المعارف بمصر ، القاهرة .

— محمد البهى ، الاسلام والواقع الايديولوجى المعاصر ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٠ .

— Wells, H. G. A Short History of the World, Harmondsworth, Pelican Books, 1956.

— Wilson, David, The Communicators and Society, London; Pergamon Press, 1968.

— Porter, L. W. and Roberts, K. H., (ed.), Communication in Organizations, Harmondsworth, Penguin Books, 1977.

— Roberts, G. K., A Dictionary of Political Analysis, London, Longman, 1971.

— Ruben, B., and Budd, R. W., Human Communication Handbook, New Jersey, Hayden Book Co., 1975.

— Schacht, R. Alienation, N. Y., Anchor Books, 1970.

— Southworth, J V., The Story of the World, N. Y., Pocket Books, 1954.

— Strouse, J. C., The Mass Media, Public Opinion, and Public Policy Analysis, U. S. A, 1975.

— Teheranian, M. and Others, (ed.). Communications Policy for National Development, London, Routledge & Kegan Paul, 1977.

— Varma, V. P. Political Philosophy; India : Agra, 1970.

- Gibbon, E., Decline and Fall of the Roman Empire, Harmondsworth, Pelican Books, 1963.

- Hersch, F., Money International, Harmondsworth, Pelican Books, 1964.

- International Encyclopaedia of Social Sciences, Vol. 3, 1968.

- Lane, R. E. and Sears, D. O. Public Opinion, New Delhi, Prentice — Hall, 1965.

- Leach, Edmund, Culture and Communication, London, Cambridge Univ. Press, 1976.

- Lippmann, W. Public Opinion, N. Y., Pelican Books, 1946.

- Mc Quail, D. (ed.), Sociology of Mass Communications, Harmondsworth, Penguin Books, 1972.

- Michels, R. Political Parties, A Sociological Study of the Oligarchical Tendencies of Modern Democracy, N. Y., The Free Press, 1962.

المراجع الانجليزية :

— Atkinson, J., Martin Luther and the Birth of Protestantism, Harmondsworth, Pelican Books, 1968.

— Barnouw, E, Mass Communication, N. Y., Holt, Rinehart and winston, 1956.

— Chatterjee, R. K., Mass Communication, New Delhi, National Book Trust, 1973.

— Connolly, J. E., Public Speaking as Communication, Minnesota, Burgess. Publishing Company, 1974.

— Cronkhite, Gary, Communication and Awareness, U. S. A., 1976.

— Dunner, J. (ed.), Dictionary of Political Science, London, Vision Press, 1965.

— Etzioni, A. The Active Society, N. Y., 1972.

— Farrar, R. T. and Stevens, J. D., Mass Media and the National Experience, U S. A., Harper & Row, Publishers, 1971.

الفهـــرست

الموضوع | الصفحة

الفصل الخامس

٭٭٭

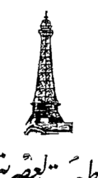
الفصل السادس

٭٭٭

الموضوع | الصفحة

الموضوع		الصفحة

رقم الايداع ١٧٦٢ / ٧٩



المطبعة العصرية

الحضرة القبلية - اسكندرية


Bibliotheca Alexandrina
0235666